

د. منصف المرزوقي

شعراء بلا حدود

مسامرات رمضانية معفاة من السياسة



دار منوال للنشر
PARADIGME EDITIONS



د. منصف المرزوقي

شعراء بلا حدود

مسامرات رمضانية معفاة من السياسة



الكتاب: شعراء بلا حدود : مسامرات رمضانفة معفاة من السفاسة

الكاتب: د. منصف المرزوقف

الناشر : ولفد بن عمران / سامف بن عمارة

تصمفم الكتاب والغلاف : أسامة حففط

الترقفم الدولف للكتاب : 978-9938-916-02-7

دار منوال للنشر والتوزفم

العنوان: 2 نهج برج بورقفبة - 1002 تونس - الجمهورية لتونسفة

الهاتف : (+216)54098333

البرفد الالكترونف : paradigm.editions@gmail.com

الفافسبوك : www.facebook.com/pg/paradigmeedition



جمفع الحقوق محفوظة

الطبعة الاولى - أفرفل 2018

فحضر نشر أو تصوففر أو ترجمة أو إعادة تنضفد وصف الكتاب كاملا أو تسجفله على أشرفة كاسات، أو فذخاله على الحاسوب أو برمجه على أقراص مضغوطة إلا بموافقة الناشر

صدر للمؤلف

الكتابات الطبية

- ◊ المدخل إلى الطب المندمج: الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي -1995 -للأطباء والطلبة
- ◊ دليل المربي في التنقيف الصحي: الدار الجزائرية للنشر 1986
- ◊ سلسلة كتب التنقيف الصحي - الدار العربية - تونس 1984
- ◊ تاريخ الطب للأطفال - دار أليف للنشر-تونس 1982

الكتابات السياسية

- ◊ لماذا ستطأ الأقدام العربية ارض المريح: دار الرأي -تونس 1982
- ◊ دع وطني يستيقظ: دار المغرب العربي -تونس سنة 1985
- ◊ الاستقلال الثاني-دار الكنوز الأدبية. بيروت 1996
- ◊ هل نحن أهل للديمقراطية؟ - دار الأهالي -دمشق 2001-
- ◊ من الخراب إلى التأسيس -المركز المغاربي -لندن 2003
- ◊ عن أية ديمقراطية نتحدثون؟ - دار الأهالي -دمشق 2004
- ◊ حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان - دار الأهالي دمشق -2006
- ◊ إنها الثورة يا مولاي - الدار المتوسطية - تونس 2011
- ◊ اختراع الديمقراطية -التجربة التونسية-شركة المطبوعات للنشر-بيروت 2014
- ◊ ننتصر أو ننتصر من أجل الربيع العربي-الدار المتوسطية - تونس 2014

الكتابات الفكرية والأدبية

- ◊ في سجن العقل -أقواس - تونس 1990
- ◊ الرؤيا الجديدة -مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة 1996
- ◊ الإنسان الحرام - قراءة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان--دمشق 2003
- ◊ الطبيب والموت-الدار التونسية للنشر. تونس 1983
- ◊ الرحلة-الدار المتوسطية - تونس 2014

بالفرنسية

- ◊ L'arrache corps : Essai sur l'expérimentation humaine en médecine -Edit alternatives .Paris 1979, Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- ◊ Arabes, si vous parliez- Ed, lieu commun. Paris 1987
- ◊ La mort apprivoisée -Ed du méridien. Montréal 1990
- ◊ Le mal arabe : Ed le Harmattan- Paris 2004
- ◊ Dictateurs en Sursis Ed L'atelier - Paris 2009
- ◊ L'invention d'une démocratie-Ed media plus-Paris 2013

إِهْلَاءٌ

إلى المصريين على مواصلة قراءة الشعر والأدب
يهيئون من حيث لا يعلمون لمرحلة ما بعد الخراب

المؤلف

الشكر والامتنان

- للأستاذ ايسلمو ولد دلاهي الذي دقق نصوص هذا الكتاب ويدقق كل مقالاتي المنشورة منذ سنوات بكل ما يعرف عن الموريتانيين من إتقان للغة الضاد وحرص على سلامتها وحبّ للشعر والأدب.
- للأستاذة ألفة الهلالي التي راجعت النص بكل دقة وأثرته بملاحظاتهما.
- لكل السّمّار الذين رافقوا المسامرات طيلة رمضان 2017 وعلمتني مساهماتهم الكثير.
- لجنود الخفاء من المتطوّعين الذين سهروا على إنجاز هذا الكتاب وإيصاله للقراء في خدمة مشروع شعب المواطنين.

توطئة

من تقاليدنا المحببة في تونس، تنظيم مسامرات طوال شهر رمضان المبارك، سويغات بعد الإفطار.

نسجا على هذا التقليد، طلبتُ من رفاق أعزّاء تنظيم حلقات سمر شريطة أن تكون خالية من السياسة.

قالوا نعم لا أسهل من ذلك، ليتضح من أول لقاء في مقهى شعبي في المدينة العتيقة، أنه لا أصعب من الأمر. زاغ الحديث بسرعة وفرضت السياسة نفسها موضوعا أساسيا وخرجتُ من السهرة منهكا متوتر الأعصاب وكأنني خارج لتوي من اجتماع حزبي عادي.

قلتُ، لأحاول من باب آخر. ألا نعيش اليوم الثورة المعلوماتية التي خلقت لنا فضاء افتراضيا يجتمع فيه الأقربون؟ لمَ لا أكون رجلَ عصري وأجرب المسامرة فيه، خاصة وأنني أستطيع أن أقترح -حتى لا أقول - أفرض على سمّاري، منذ البداية، موضوعا أدبيا، هكذا أقطع الطريق على كل من يريد تنغيص السهرة بمواضيع من حقنا على أنفسنا تركها جانبا ولو إلى حين.

استفزتني صورة الهوة السحيقة التي تفصل بين سمّار الماضي القريب المجتمعين بأجسادهم، وسمّار هذا العصر المجتمعين حول حاسوب وأجسادهم بعضها موجود في تونس وبعضها الآخر في فرنسا وألمانيا وكندا وغيرها من البلدان البعيدة. هل يمكن أن نصف شيئا كهذا بالسمر، والحال أنك لا ترى ملامح مسامرك ولا تتفاعل معها في إطار فوضى

لطيفة تعطي طابعها المميز لحلقات السمر الحقيقية؟ سؤال سأتركه جانبا
مراهنّا على أن تطوّر التقنيات الحديثة سيجعل التواصل يلغي كل الفروق
بين السمر في الفضاء الحسي والسمر في الفضاء الافتراضي.

هذا ما يجرّنا لتفحص المفهوم نفسه.

السمر حديث عفوي عادة إبان الليل ومن المستحسن على ضوء القمر. أمّا
السّمّار فالمدعوون لحلقة الحديث هذه وهم الذين أشار إليهم الحصري في
قصيدته المشهورة:

يا ليلن الصبّ متى غُدّه اقيامُ السّاعة موعُدّه
رقد السّمّار فأرقه أسفّ للبينين يررّده

مثل هذه العادة الاجتماعية مغرقة في القدم. فالبشر منذ ما قبل التاريخ
تجمعوا في أعداد صغيرة، لتبادل القصص والنوادر والنكت وآخر
الإشاعات، وكل السهرة تعبق بجوّ من البهجة والمودة لا ينعصه إلا حلول
لحظة التفريق. هم تجمّعوا في العراء حول النار، وفي الكهوف وداخل
الخيّام والقصور. في ماضيّنا العربي الإسلامي اتخذت حلقات السمر شكل
مجالس القبيلة أيام الجاهلية، ومجالس الشعر والأدب أيام الخلفاء الأمويين،
وصولا إلى مجالس الشرب عند العباسيين.

ما الذي يجعل مثل هذه المجالس محبّبة للكبير والصغير، لصاحب السلطة
ولأبسط الناس؟

خاصية السمر الأولى وشرطه الضروري جمعه نفرا قليلا من أناس
يأسّون لبعضهم، تربط بينهم علاقة مودّة واحترام.

الخاصية الثانية أن الفكر إبانته غير مطالب بمواصلة إحكام السيطرة على كل ما يصدر منه. حديث السمير ليس درسا يلقن فيه عالمٌ جاهلاً، إرشاداً، وعظاً، ملامة، عتاباً، مناظرة فيها غالب ومغلوب. هو ثرثرة لا رهان فيها، كلام مسترسل على سجيته يختلط فيه الجد بالهزل، والخاص بالعام، لا هدف له عدا متعة الترويح عن النفس والتواصل مع الآخرين. السمير هو المجال الوحيد في التخاطب بين البشر الذي لا مكان فيه لخوف من عقاب أو طمع في جزاء، فما بالك بوجود الحسيب أو الرقيب.

يا لراحة البال وأنت غير مطالب بإثبات أنك على حق والمحاور على خطأ وضلالة، وأنت غير مجبر على نقده وتحمل نقده لك لأنّ جليستك على نفس الموجة انتفت بينكما كل أسباب الخصام، اللهم ما تفتعلان منه مرحاً وسخرية من كل خصام.

هكذا تدخل حلقات السمير وقد وضعت جانباً ما أنت مدجج به باستمرار، من أسلحة الدفاع والهجوم. أيّ حاجة لك بهذه المواقف والتصرفات وأنت الآن بين أهلك وذويك، سواءً أكان ما يجمعك بهم قرابة الدم أو قرابة الفكر والعاطفة؟ أضف لهذا أن هناك دوماً منفعة متبادلة، إذ تشكل غالب الوقت الطرفية أو الحكاية الشخصية أو الدعابة المتبادلة، منطلق نقاش قد يذهب بعيداً في التجريد والتطير والعمق فليست كل حلقات السمير للترفيه السطحي؛ لذلك تعهدوا أهل السلطة السياسية والثقافية وحتى الدينية في كل زمان ومكان.

الجلوس لمن تحبّ ولا تخشى منه شيئاً متعة كافية لوحدها. فما بالك عندما تصاحبها متعة الحديث عمّن تحبّ، سواءً أكان مشروعاً ناجحاً أو ابناً نابهاً

أو صديقا غائبا أو أشخاصا لعبوا في حياتك دورا بالغ الأهمية، باعتبارهم قدوة أو دليلا أخرجك من التيه ووضع خطاك على الطريق الأسلم. قد يكون أحسن تعريف للسمر أنه كلام مع من تحبّ بخصوص ما أو من تحبّ.

كان من الطبيعي إذن، أن أدعو لحلقات السمر التي عقدتها طوال رمضان (1438 هجري - 2017 ميلادي) أصدقاء صفحتي على الإنترنت وأن يكون الحديث عمّن أحبّ في العالم غير المرئي الذي أعيش فيه إلى جانب العالم الحسيّ.

لكن من سأختار من بين كبار الموسيقيين والفلاسفة والأدباء الذين أدين لهم بأحسن ما في؟ قرّر القرار أن يكون موضوع سهراتنا أحبّ الشعراء إليّ والشعر هو الحبيب الأول في الفضاء الفكري للعرب منذ القدم.

هكذا انطلقت التجربة: على صفحتي في الإنترنت، أضع بعد الإفطار ما جادت به الذاكرة والقريحة بخصوص شاعر الليلة. ثم كنت أجلس للحاسوب للردّ على الملاحظات التي كانت تأتي بالعشرات. وكالعادة في حلقات السمر، تفرع الحديث وتشعب بيني وبين السمّار، وفي ما بين السمّار أنفسهم. من تفاعلات المشاركين تعلّمْتُ الكثير وتمتعت أكثر.

اقترح أحدهم في نهاية الشهر الفضيل أن تُجمع النصوص وتنتشر. وهذا ما تمّ بعد إعادة كتابتها وإثرائها. كم كنت أودّ أن تنتشر معها مداخلات السمّار، لكن كثرتها وتباينها جعل الأمر عسيرا على الناشر.

غنيّ عن القول إنني لا أدعي أن من اخترتهم هم الفطاحل دون سواهم؛ فالأذواق جدّ متباينة. لا أدعي أيضا أنني مختصّ فيهم أو أنني أعرف عنهم كل شيء. كل ما في الأمر أنهم أثروا في حياتي بصفة مباشرة، وأن قصتي تقاطعت في مرحلة ما مع قصصهم، فوجدت هذه العلاقة الحميمة الغريبة التي تربط أحيانا بين ذاتين فرّق بينهما الزمان والمكان.

غنيّ عن القول أيضا إنني لست ناقدا أدبيا؛ لم ولن أتجاسر على علم لا أعرف عنه إلا بعض ما قرأت. أخيرا وليس آخرا، لم يكن أبدا هدف هذه المسامرات تقديم نظرية عن الشعر؛ لكنني لم أقاوم إغراء تقديم رؤية خاصة بي تبلورت شيئا فشيئا طوال السنين والعقود وأنا أقرأ كل ما أستطيع الوصول إليه من شعر العرب والأمم الأخرى.

ليس بين يديك إذن عزيزي القارئ إلا ذكريات مع شعرائي المفضلين حول بعض قصائدهم وأحيانا حول بيت واحد منها علق بالذاكرة على امتداد عقود ولعب من حيث أدري ولا أعي دورا كبيرا في تشكيل ذهنيّتي ورويتي للعالم. ثمة في الأخير بعض الملاحظات العامة عن الشعر ماضيا ومستقبلا لا أدعي أنها ترقى لمستوى التنظير في مجال لم يكن يوما مجال اختصاصي وإنما يتعلق الأمر مرة أخرى بدرشة رمضانية أرجو أن تجد في قراءتها المتعة التي وجدتها في كتابتها.

سوسة - مارس 2018

تصفية الحسابات القديمة مع الشنفرى

في سنتي الثالثة عشر، دخلت أشهر المدارس الثانوية في البلاد آنذاك، وهي المدرسة الصادقية بتونس العاصمة¹. كانت توفّر أجود تعليم لنخبة من التلاميذ، اختيروا على أساس معدلاتهم في الابتدائي لا أصولهم الاجتماعية.

كان برنامج اللغة العربية طوال السنوات الأربع التي قضيتها هناك، دسماً بالأدب وخاصة بالشعر الجاهلي. ذات يوم كان المطلوب الاستشهاد في درس المحفوظات بالأبيات الخمس الأولى للامية الشنفرى، وأغلب كلماتها ذات الخمس عشر قرناً من العمر بالنسبة لنا باعتبارنا أطفالاً لا يتكلمون إلا العربية الدارجة، أصوات نحفظها دون فهم ونردّها كالبيغاء.

تحسباً لحالات الطوارئ - اختيار الأستاذ لتلميذ ما للتأكد من قيامنا بالفرض - كتبتُ الأبيات على راحتي اليسرى بقلم الحبر، كما كنا نفعل جميعاً، أملين حتى آخر لحظة أن ينادي الأستاذ باسم أحد الخصوم والمنافسين.

يشاء سوء الطالع أن يصرخ أستاذنا تلك السنة، "سيدي" أحمد العربي رحمه الله أوسع رحمة وسامحه ألف مرة في ما فعله بي ذلك اليوم: مرزوقي إلى السبورة!

1- سُميت على ملك تونس الصادق باي (1813-1882) لكن مؤسسها الحقيقي سنة 1875 هو وزيره المصلح

الكبير خير الدين باشا.

مشيتُ إلى تلك السبورة اللعينة متناقلاً لآعنا يوم النحس هذا. واجهت جحافل المتنفسين الصعداء الفرحين بإفلاتهم من "الكارثة" وبعض المتشمّتين فيّ بلدّة واضحة. وقفت وظهري الى السبورة والذراعان مجتمعان فوق الصدر، الراحة اليسرى فوق اليمنى والرأس منحن، لا من شدة الخشوع ولكن لتكون الكتابة في متناول العينين.

مرّ البيت الأول بسلام، نطقت به شاخص البصر إلى الأمام وهو الذي يقول فيه الشنفرى:

وليلة نَحْسٍ يَصْطَلِي القَوْسَ رَبُّهَا وَأَقْطَعُهُ اللاتِي بِهَا يَنْتَبِلُ

فجأة تلبّدت الذاكرة وأنا أفتحم البيت الثاني الذي يقول فيه:

دَعَسْتُ عَلِيَّ عَطَشٌ وَبَغَشٌ صُحْبَتِي سُعَارٌ وَارزِيْزٌ وَوَجْرٌ وَأَفْكَالٌ

استرقت النظر إلى راحتي فجادت عليّ ب "دعست على عطش وبغش" ثم عجزت عن قراءة البقية وقد تداخلت النقط على الحروف. تمتت بكلمة قد تكون "إرزاز" ثم توقفت مقرّباً راحتي من عينيّ لأصحح النطق وقد نسيت فجأة كل المحاذير، هاجسي الأوحاد قراءة الطلاسم التي كتبتها بنفسى. كل هذا وأنا غير منتبه لتصاعد الصخب من الرفاق والضحك المكتوم لسَيدي الذي أنهى العملية صارخاً باتجاهي: مرزوقي، مكانك! ألا تخجل من نفسك؟ أربع ساعات عقوبة؛ سنكتب للحصة المقبلة هذا البيت مائة مرة، ولا تعد للغش أبداً.

هكذا عدت لمكاني مكللا بالخزي والعار، وعلى الدرجة التاسعة من سلم
رشته في احمرار الاذنين ، وخاصة بالساعات الأربع التي سيكون من
الصعب تبريرها مرة أخرى للوالدة.²

وكما لم يقل المعري:

هذا ما جناه الشنفرى عليّ وما جنيت على أحد.

نعم، منذ ذلك اليوم - الذي لا أتذكره إلا وأضحك ببعض الدمع في عيني -
و أنا على جفاء مع الشنفرى، رغم إعجاب خفي وتضامن سياسي مطلق
معه ومع صعاليك كل زمان ومكان.

كيف لا يكون حقوقي مزمن مثلي مع قوم عبّر عروة ابن الورد زعيمهم
عن أعماق ما في ذواتهم:

دعيني أطوف في البلاد لعلي
أفيد فيه غنى لذي الحق محمل
ليس عظيمًا أن تلمّ ملّمة
وليس علينا في الحقوق معول
فإن نحن لم نملك دفاعًا بجادث
تلمّ به الأيام فالموت أجمل

2 . كانت القاعدة في المدرسة ألا نعاقب بالضرب وإنما بساعات إضافية نقضينا في المدرسة خلال عطلة نهاية
الأسبوع. ساعتان للتجاوزات البسيطة، وأربع ساعات للجنح. بالنسبة لأمثالي من المشاغبين المزمين كانت
الفاثورة الأسبوعية تصل أغلب الوقت لساعتين ظهر السبت وثمانى ساعات طول الأحد. النتيجة قضاء كل نهاية
أسبوع في غرفة المراقبة مع المغضوب عليهم والضالين، نتظاهر بالقراءة، نتأعب ونواصل الشغب الصامت
تحت حراسة قيمّ عيوس قمطير لا يخفي بغضه لهؤلاء "الفروخ" الذين أضاعوا عليه عطلته الأسبوعية. المشكلة
لم تكن صرامة القيمّ بقدر ما كانت صعوبة إقناع الوالدة رحمها الله بقصة أن "الصادقية" مدرسة نخبة وبالتالي
الدراسة فيها سبعة أيام في الأسبوع إلا ما قلّ وندر من العطل؛ فما بالك بقصة اكتشاف الأساتذة لعبقريتي
وإصرارهم -جازاهم الله خيرا- على إفرادي بحصص خاصة حتى ظهر السبت وطول يوم الأحد.

إذن رغم التعاطف المبدئي مع أناس ثاروا ضد أشجع أنواع الطبقية والعنصرية فإن عليّ أن أكون صريحا في قول الشنفرى في البيت الثالث:

فَأَيَّمْتُ نِسْوَانًا وَأَيَّمْتُ إِلَهَةً وَعُدْتُ كَمَا أُبْدَأْتُ وَاللَّيْلُ أَلِيلُ

كيف لفارس أن يتبجح بأنه جعل من نساء تكالي ومن أطفال يتامى؟

ما يشدنا في الشعر وما ننشده فيه هو الجمال طبعاً وكل شاعر لا ينقر على الوتر الحساس للذات المتشوقة له، يخطئ المرمى. لكن حتى جميل الكلام غير قادر على إخفاء قبح المشاعر والأفعال شأنه في هذا شأن عطر لا يستطيع تغطية نتن الأجساد القذرة. أليست وظيفة الشعر الأولى التعبير أساساً عن أجمل ما في الإنسان فكيف نقبل أن يجعل منه هذا الشاعر أداةً يغطي فيها أجمل الكلام على أقبح الأفعال؟

سؤال آخر موجه للمربين: أيجوز تعليم الأطفال قصائد كهذه تساهم في التطبيع مع أشجع ما يأتيه الإنسان؟ ثم ما معنى إجبارهم على حفظ قصائد لا يفهمها حتى الذين أمرهم بحفظها؟

بقية القصة بخصوص هذه النقطة: علق بذهني البيت رمزا لكل ما لا أفهم ولا أقبل. صاحبتني ذكراه عقوداً أترتم به بمناسبة وبدون مناسبة.

ذلك الصيف المشؤوم - 2013 - الذي انتصرت فيه الثورة المضادة في مصر وزمجرت في تونس، أذكر أنني كتبت في مذكرتي - وأنا أتساءل هل سأنتهي سجيناً مثل مرسي أو مقتولاً مثل أليندي؟! - أسخر من وضعي ومن حال الدنيا:

دَعَسْتُ عَلَى غَطْشٍ وَبَغَشٍ وَصُحْبَتِي أزممة وكارثة ومصيبة وإشكال

بعد خروجي من السلطة وتوقّر شيء من الوقت للقراءة والكتابة والتأمل، قلت لنفسي أن الأوان لإغلاق جملة من الملفات، ولمّ لا هذا الملفّ المفتوح منذ أكثر من نصف قرن.

هكذا أخذت بعض الأسميات للبحث في أمهات الكتب عن تفسير للكلمات التي رفضت ذاكرتي حفظها أول لقاء معها.

خلاصة التحريات

اتفق المفسّرون على أنّ كلمة "غطش" تعني الظلام الدامس وأنّ "بغش" تعني الخفيف من المطر وأما السعار فهو الجوع الشديد. بخصوص "الإرزيز" فهو عند البعض شِدَّةُ البَرْدِ وعند البعض الآخر صوتٌ مخيف. يعني "الوجر" عند البعض الخوف، وعند البعض الآخر يعني الشوك.

لا يطرح "الأفكل" إشكالا وهو عند الجميع الرّعةُ من شدة البرد أو من شدة الخوف.

يضيف ابن منظور، ثالث كبرى عطايا تونس للثقافة العربية، مع ابن خلدون والشابي، معنيين آخرين. فالأفكل في لسان العرب³ موضع مثل "توضح" و"المقراة"، و"الدّخول" و"حومل" عند امرئ القيس، وذلك استنادا لقول الأفوه:

تمنى الحماس أن تزور بلادنا وتدرّك ثأرا من رغانا بأفكل

3 - لسان العرب، دار صادر، المجلّد 11، ص531

وهو أيضا بالنسبة له بطن من بطون العرب يعرف بَنُوهُ بالأفاكل.

المشكلة تضارب المفسرين فيما يخص "دعست". فلبعض يعني الفعل المشي بقوة وصلابة. وأما البعض الآخر فيعني له الطعن.

في الحالة الأولى يصف الشنفرى انطلاقة المجزرة وهو عازم كلّ العزم على القتل؛ مما جعله يخبط الأرض بقوة. وأمّا في الثانية فيصف الشاعر المجزرة ذاتها وهو يطعن أعداءه محفوقا بالظلام والمطر.

خذ كل هذه التفسير وستجد أكثر من معنى للبيت: انطلق الشاعر نحو مكان اسمه "الأفكل" لارتكاب جريمته النكراء... أو صحبه أعرابي من الأفاكل للمساهمة في القتل والغنيمة... وفي الطريق شكا من كثرة الشوك أو من أصوات مرعبة تتصاعد من جوف الليل.

إن اعتبرنا أن "الوجر" هو الخوف وليس الشوك، فهل نستنتج أن شاعرنا الكبير كان جباناً؟ ألا يعترف الرجل بعظم لسانه أنه كان يرتعد ورعدته هذه لا يمكن أن تكون إلا من الخوف؛ إذ يعرف أهل الصحراء أن المطر الخفيف علامة طقس دافئ لا يرتجف خلاله البدن.

المشكلة الكبرى الأخرى في كل التفسير أننا لا نعرف إلى أي مدى تعني حتى الكلمات التي مازلنا نستعملها نفس الشيء بالنسبة لأجدادنا.

انظر قول الشاعر:

"وَعُدْتُ كَمَا أَنْبَيْتُ وَاللَّيْلُ الْبَلِيْلُ"

كم تبدو لنا كلمة الليل بديهية. لكن يا للفرق الهائل بين هذا الفاصل الزمني الذي نواصل فيه نحن العمل واللهو ونخرج فيه للشوارع والساحات المضاءة والمحروسة، وبين ليل الشنفرى حالك الظلام المليء بالمخاطر والأشباح.

المحصلة أنني لا أفهم البيت هذا اليوم أكثر مما فهمته طفلاً، بل يمكن القول إنَّ غرابته تزايدت وأنا أحاول فكِّ طلاسمه.

أن أموت دون حلّ أيّ من ألغاز الكون فذلك قدري وقدّر كل إنسان. فلأمتّع -على الأقل- بحلّ لغز بيت أجبرت طفلاً على كتابته مائة مرة دون أن يزيدني العقاب به فهما.

إذن يا أهل شنقيط وأنتم أعلم الناس بلغة الضاد... يا أهل نجد والحجاز وأنتم أعلم الناس بلغة الضاد... يا أهل اليمن -فرّج الله كربكم في هذا الشهر الفضيل- وأنتم أعلم الناس بلغة الضاد... يا أهل الطيّب صالح وأنتم أعلم الناس بلغة الضاد... يا أهل كل الأمصار وأنتم أعلم الناس بلغة الضاد... ما معنى الأرزيز والوجر والغطش والبغش والأفكل؟ وهل من تفسير مقنع للبيت يحقق أخيراً التوافق بين كل اللغويين، والله لا يضيع أجر المحسنين المستجيبين لهذه الاستغاثة.

غفر الله للشنفرى فعلته الشنيعة تلك الليلة الليلية، وغفر له أيضاً ما فعله بصبي بريء، من مكان غير مكانه وزمان غير زمانه، تسبب له في فضيحة نكراء علمته أن الغشّ فعل كرية خاصّة إن تمّ اكتشافه.

الخنساء وتعليمات صنع الذات النبيلة

كم من شاعرات يحفل بهنّ تاريخنا الأدبي! قديما: أسماء بنت أبي بكر، عليّة بنت الخليفة المهدي، عائشة التيمورية في مصر القرن التاسع عشر... حديثا فدوى طوقان شاعرة فلسطين، غادة السمان، نازك الملائكة، سعاد الصباح وغيرهن.

لكن ليس لأيهن أن تنافس تماضر بنت عمرو السلمية المعروفة بكنيتها الخنساء، الشاعرة التي قال عنها بشّار بن برد إنها غلبت الفحول.

ألهذا سمّي والدي -العاشق للشعر باسمها أختا لي رحلت قبل سنتها الأولى؟

ربما اختار الاسم لأن المرازيق أحفاد بني سليم، وهؤلاء القوم هم أهل الخنساء. فهل أعطى الرجل لابنته اسم الشاعرة ليستحضر عبر جدّة حقيقية أو أسطورية عمق الزمان الذي يتحرك فيه؟

عندما أنفحص شعرها أميل لتفسير آخر سيتبلور للقارئ شيئا فشيئا.

أغلبنا يعتقد أن الخنساء لم ترث إلا صحرا، لكن الشاعرة الكبيرة فقدت أختا آخر هو معاوية، الذي قُتل في إحدى المعارك العبيثية بين القبائل رثته هو الآخر بأرقّ الأبيات.

وكانَ لِزَازِ الحَرْبِ عِنْدَ شُيُوبِهَا
وقَوَّادُ خَيْلٍ نَحْوِ أُخْرَى كَأَنَّهَا
بَلِينَا وَمَا تَبْلَى تَعَارٌ وَمَا تَرَى
فَأَفْسَمْتُ لَا يَبْقَاكَ دَمْعِي وَعَوَّلْتِي
إِذَا شَمَّرْتُ عَنْ سَاقِهَا وَهِيَ ذَاكِيه
سَعَالٌ وَعُقْبَانٌ عَلَيَّهَا زَبَانِيه
عَلَى حَدَثِ الأَيَّامِ إِلا كَمَا هِيه
عَلَيْكَ بِحَزْنِ مَا دَعَا اللهُ دَاعِيه

يبقى أنها كادت تحصر رثائها في صخر. قالت فيه ما لم تقله في كائن آخر
ولا حتى في أبنائها الأربعة الذين استشهدوا في القادسية.

ما الذي أعطى المكانة الطاغية لصخر في قلب امرأة فقدت من الأحبة
الكثيرين وذاقت من آلام موتهم ما ذاقت؟ هل لأنه حماها من زواج لم
ترض به؟ أم لأنه اقتسم -رغم أنف زوجته- ماله معها في الأيام العصبية؟
تواصل بكاء الخنساء أخيها صخرًا طوال حياتها إلى أن ملّ الناس
فاشتكوا للفاروق، الذي أمرهم بتركها وشأنها فواصلت النحيب لآخر نفس
وأخر دمعة.

يا عين جودي بدمع منك مهراق إذا هدا الناس أو همّوا بإطراق
أنى تذكرني صخرًا إذا سجعت على الغصون هتوف ذات أطواق
وكل عبرى تبيت الليل ساهرة تبكي بكاء حزين القلب مشتاق

ما دوافع تصرفكم بدا غريبًا لأهلها، فما بالك بالنسبة لنا نحن؟ هستيريا،
امرأة مصابة بنوع من العصاب؟ تمثيل متواصل لاستدرار العطف
والإعجاب؟ حالة نسميها اليوم الانهيار العصبي نتيجة كل المصائب التي
لاحقت امرأة عاشت بين سناك الخيل وقعقة السيوف وفقدت أخوين
وأربعة أبناء في حروب لا تنتهي؟

لنتقّم موقف المرأة انظر صفات الذي فقدت:

هو الفتى الكامل الحامي حقيقته مأوى الضربك إذا ما جاء منتابا
يهدي الرعيل إذا ضاق السبيل بهم نهّد التليل لصعب الأمر ركابا
المجد حلتته والجود علتته والصدق حوزته إن قرنه هابا
خطاب محفلة فرّاج مظلمة إن هاب معضلة ستى لها بابا
حمّال ألوية قطّاع أودية شهّاد أنجبة للثأر طلابا
سُم العداة وفكّاك العناية إذا لاقى الوغى لم يكن للموت هيابا

بهذه الأبيات ترسم الخنساء ظاهريا صفات الأخ المحبوب، وهي في الواقع ترسم أرقى صفات الرجولة عند المرأة العربية التي ترى أنه لا فتى كامل إلا وهو الملاذ والحامي والكريم والصبور والمنتم والمصدق والعادل والمقدام الذي لا يهاب الموت من أجل رعيّل هو لهم الهادي كلما ضاقت بهم السبل.

ربما كان بكاؤها رسالة: لم يعد فيكم بطل وقد رحل من مثل كل قيم البطولة، فكيف يكون الصبر وتكون السلوى وقد تبخرت فجأة مع رحيل البطل كل القيم التي تجعل للوجود تبريرا؟

من أين لنا العلم بما قصدت ونحن لم نسكن ذاتها؟

جمعت الخنساء كأحسن ما يكون الجمع مواصفات البطل من منظور الثقافة العربية، على وجه التحديد من منظور الثقافة العربية لذلك العصر، وتلك البيئة بدوية الجذور والفروع.

لا أعتقد أن بوسع شاعرة فرنسية المفاخرة البارحة أو اليوم، بحبيب لأن "الجود علتته" أو لأنه "للثأر طلاب". فالكرم في الثقافة الفرنسية لا قيمة له

بل هو عيب يضاها في ثقافتنا التبذير. أما الثأر فجريمة تقود صاحبها
للإدانة والمشنقة، لا للتكريم والتباهي عبر قصائد الشعر.

لا شك أن مثل هذه الشاعرة كانت تركز في وصفها للرجل المثالي على
حساسيته وإنسانيته والتزامه بالحق والعدل، وربما على تمتعه بحسّ الفكاهة
أو إجادة الرقص.

القاعدة أن الشعر ينطق بثوابت الذات البشرية أيا كان زمانها ومكانها، وفي
نفس الوقت هو أيضا أصدق شاهد على أدق الخصوصيات الثقافية لهذا
الشعب أو ذلك في فترة معينة من تطور تاريخي يتسارع أو يتباطأ لكنه لا
يتوقف أبدا.

من هذا المنظار علينا أن نتذكر أن الشعر عند العرب ما يزال ديوانهم أي
مخزن أدق عواطفهم وأعمق أفكارهم وأهم تجاربهم.

هو أيضا الفضاء الذي وثقت فيه أهم الأوامر والنواهي الواضحة والضمنية
لصنع الإنسان المثالي.

اعتقادي أنه لا أحد يقرأ للخنساء إلا وأراد نفسه -عن وعي أو عن غير
وعي- صخرا بصفاته تلك... الرجل الذي يستحق أن تبكي فقده امرأة إلى
آخر حياتها، أكانت أختا أو زوجة أو ابنة.

يخطئ من يتصور أن شعر الفخر عند العرب كان موجها لغير ربات
الحبال الصامتات المتابعات وراء الخدور وهن في آخر المطاف هدف
إثارة الإعجاب وطلب الحب والاعتراف.

لا تتحدّد الرجولة فقط بالبيولوجيا وإنما أيضا بالثقافة، والنساء هن من يحدّدن دوما مواصفاتها الأساسية وذلك طبقا لحاجياتهن المتعدّدة المتباينة. ماذا فعل الرجال طوال العصور غير محاولة الالتزام بوصفة الرجولة هذه كما حددها النساء؟

لكن ليطمئنّ “الذكوريون” فالعكس صحيح أيضا: من حدّد وما يزال يحدّد - الأئوثة بأدق مواصفاتها غير الرجال، الذين وصل بهم الأمر إلى حدّ تفصيل ملابس النساء واختيار عطورهن؟

كما تمارس النساء ضغطا متواصلا على الرجال لكي يكونوا كما يريدن حتى يحققن أهدافهن، يمارس الرجال ضغطا متواصلا على النساء ليقتربن من الصورة المثالية التي حددها لتحقيق حاجياتهم ومطالبهم.

ويبقى الرجال كما هم، أي بعيوبهم ونواقصهم؛ وتبقى النساء كما هنّ بعيوبهن ونواقصهن؛ في ركض متواصل طوال الحياة للارتقاء إلى مصافّ نماذج مثالية لا تُدرّك، الشعر أحسن ما يرسم لها أجمل الصور.

عندما يسخر أبو دلامة من البطولات الكاذبة

منذ اختراع الكاتب العبقري الإسباني Cervantes للشخصية الخالدة "دون كيشوت" والثقافة الغربية -خاصة في القرنين الأخيرين، أساسا عبر السينما- تفسح مكانا كبيرا لما تسميه اللغة الفرنسية البطل المضاد أو النقيض .L'anti-héros

الشخصية قديمة قدم الإنسان نفسه. لا أظن ثقافة سليمة ليس فيها هذا النوع من البشر الضروريين لتوازنها. وبخصوص ثقافتنا لا أعرف أحدا لعب هذا الدور أحسن من أبي دلامة، شاعر الخلفاء العباسيين الثلاثة الأوائل، السفاح والمنصور والمهدي.

لقد اجتمعت فيه كل مواصفات البطل النقيض، وأولها الدمامة. أليست أولى الخصائص المطلوبة في البطل النمطي الوسامة؟ لهذا لا نرى في أفلام هوليوود وبوليوود أبطالاً لم يمرّوا بتدريبات قاسية لكمال الأجسام، ولا نرى من لهم قسامات عادية فما بالك إن كانت قبيحة أو منقرّة.

انظر كيف يصف أبو دلامة نفسه:

ألا قَبِحت أنت أبا دلامة فليست من الكرام ولا الكرامه
إذا لبس العمامة قلت قردا وخنزيرا إذا نزع العمامه
جمعت دمامة وجمعت لؤما كذاك اللؤم تتبعه الدمامه

ألا يقول الشاعر في الحقيقة لكل المغرورين: نمّقوا صوركم وتفاخروا بجمالها، أما أنا فخارج لعبة المظاهر.

والآن أيّ صفة نفسية مطلوبة أكثر في مجتمع يسوده العنف وتعصف به الحروب؟ الشجاعة طبعاً.

تصوّر صدمة عشاق البطولة وهم أمام شاعر لا يخجل البتة من المجاهرة بجبنه وأنه لا يتردد في الهرب بجلده إذا وصلت الأمور إلى حدّ كسر عظام الرأس التي لا تعوّض خاصة إن شطرها السيف إلى شطرين:

الألا تلمني إن فررت فإنني أخاف على فخارتي أن تحطما
فلو إنني في السوق ابتاع مثلها وجئت ما باليت أن أتقّما

هذه الحكاية الشهيرة التي تُروى عن أبي دلّامة كما صغتها في كتابي "الرحلة":

“يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا موجة من الرعب لفظاعتها ومن التثاؤب لتكرارها الممل.

مهلاً ثمة شيء جديد في السيناريو المبتذل من فرط التكرار.

للقوم طقوس تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق، كنوع من فاتحات شهية القتل.

من سيأمره الخليفة المنصور بالخروج هذه المرّة إلى فارس العدو؟ آه، لقد اختار المهرّج الرسمي الذي يرافقه في حلّه وترحاله!

ربما قرّر الأمر ليعث رسالة احتقار إلى العدو، أو ليضحك من مضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوماً يسخر منه ومن بطانته وقد اكتشف أنهم هم المهرّجون، أو هو قرار غبيّ من جملة القرارات الغبية الأخرى التي يتخذها باستمرار.

عبثا يستعطف أبو دلامة مولاه مذكرا إيّاه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمك إلا بسكاكين المطبخ. آخر استعطاف: بما أن الموت قدري اليوم، هل لي أن أموت شعبانا، أيأمر لي أمير المؤمنين بدجاجة محمّرة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسنا الدعابة ومثمّنا في قرارة نفسه قيام المهرج إلى آخر لحظة بالواجب الذي خلق من أجله. يأمر الخدم بالمطلوب، ثم يأمر الجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى ساحة "الوغي".

من الطرف الآخر للساحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فارس التحدي سيفه ويهمز حصانه صارخا بشعار أبله ما. داخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمامه. ثم يداهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدّق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة خطوة وراكبه شاهرا... دجاجة محمّرة.

المشهد: الرجلان، كل على صهوة جواده، كتفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شيئا يشبهه:

أبو دلامة: أتعرفني؟

الفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.

- هل ثمة ثارات قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصَفّ بعد؟

- لا والله.

- هل هتكت لك عرضا؟

- لا والله.

- هل قتلت لك أبا أو أمّا؟

- لا والله.

- هل ظلمتك يوماً؟
- لا والله.
- هل سرقت لك شيئاً؟
- لا والله.
- هل جاءك واش بكلام قبيح يدّعي أنني قتلته فيك؟
- لا والله.
- ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العنّ الشيطان، مؤكّد أنك تتماوت جوعاً مثلي، دعني أعزمك على الغداء، ابشر، الدجاجة ما تزال ساخنة وكذلك الخبز.
- ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس تنفرّج على رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر، فإذا بهما ينهشان معا دجاجة بشهية واضحة، ويدردشان كأخوين فرّقت بينهما الحياة وتلاقيا صدفة من جديد".
- وراء هذا الاستخفاف الظاهري يبعث لنا الشاعر أهم رسالة ألا وهي أنه لا بطولة في القتل والموت، وإنما كل البطولة في العيش وتعهد الحياة في كل مظاهرها؛ وهو ما يجعل أعظم الأبطال النساء في حملهن، في مخاضهن، في الولادة العسيرة... في سهرهنّ على الطفل المريض... في صبرهن على كل منغصات الحياة إلى أن يكبر الصغير ويشفى المريض ويعود الغائب. أمّا عند الرجال فالبطولة ليست في الدفاع إلى آخر سهم ورمصاصة عن الأرض والعرض فحسب، إنما هي أيضاً في الخروج إلى الصيد الخطر، إلى الحقل الغارق في الوحل، إلى المنجم الخانق، إلى البحر المرعب، إلى العمل الشاق الروتيني الممل لتوفير العيش الكريم لعائلاتهم... وكل الباقي تهريج.

لم يبق لإكمال الملفّ الثقيل للبطل النقيض إلا أن نضيف لدمامته و"جبينه"
قلة وضعف تديّنه.

أنظر قوله:

ألم تعلموا أن الخليفة لرنّي بمسجده والقصر، مالي وللقصر
فقد صدني عن مسجد استأذنه أعطل فيه بالسماع وبالخمر
وكلفني الأولى جميعا وعصرها فويلي من الأولى وويلي من العصر
أصليهما بالكره في غير مسجدي فما لي من الأولى ولا العصر من أجر
ووالله مالي نية في صلاته ولا البر والإحسان والخير من أمري
وما ضره والله يصلح أمره لو أن ذنوب العالمين على ظهري

عن ضيقه بالصيام وتأفّفه من رمضان اسمع قول رجل نعترف له على
الأقلّ بأنه لا يكذب لا على نفسه ولا علينا:

جاء الصيام فصمته متعبدا أرجو رجاء الصائم المتعبّد
لقيت من أمر الصيام ومرة أمرين قيسا بالعذاب المؤصّد

لله درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأذعياء من الآخرين؛
الذي يفاخر بجبينه حين يفاخر الآخرون بشجاعتهم الذي يجاهر بقلة حماسه
للصلاة في حين لا يذهب الآخرون للجوامع إلا لكي يلاحظ الخلق كم هم
مواظبون على أداء الطقوس. وربّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة
جسماً وروحاً.

المتنرد الحقيقي أو الثائر الأخطر على المجتمع ليس إذن الإرهابي أو
المقاوم أو المصلح المجدّد. كلهم منخرطون دون وعي في نفس المنظومة
التقافية، وكل ما في الأمر أنهم يريدون أفضل الأدوار في نفس المسرحية،

كلهم يسعون لاكتساب صفات تميّزهم عن بقية البشر، أو يسعون لأعمال لا يقدرّون عليها وهي بالأساس شكل أو آخر من تغيير الواقع.

لكن أبا دلامة وأشباهه على مرّ العصور وفي كل المجتمعات، رافضون للمسرحية بأكملها ولا يريدون فيها إلا الدور الذي اختاروه، وهو الدور التخريبي لكل المنطلقات المبنية عليها أغلب الخيارات المجتمعية واسعة الانتشار.

بديهي أن مهمة البطل النقيض وسبب وجوده أصلا باعتباره كائنا اجتماعيا وباعتباره شخصية رمزية، التأشير على حالة العطب التي تصيب مجتمعا ما انطلقا من قاعدة أن كل ما هو قابل للسخرية بالضرورة فاسد في جانب من جوانبه.

ما الذي يجعل مجتمعات قادرة على تحمّل البطل النقيض؟ طبعا متانة هذه المجتمعات القادرة لا فقط على تحمّل أبي دلامة وأمثاله وإنما على تشجيعهم ولو في الخفاء لكي يساهموا بطريقتهم الذكية في إصلاحها. أما التي ترفضه وتلاحقه وقد عرفت أنه هو أخطر المخربين لمنظومتها الفاسدة فهي التي نخر فيها المرض وربما أن أوان زوالها.

هل يمكن إذن أن نقيس صحة مجتمع بكمية ما ينتج من أبي دلامة وأصحابه، وأن نقيس مرضه بما ينتج من متنبّي وأشباهه؟

رأي شكسبير في "المجد"

في نفس سياق قدرة الشعر على التغني بالبطولة الكاذبة أو السخرية منها، ما جادت به قريحة شكسبير في قصيدة الأعمار السبعة (The seven ages of man)

إنها من أشهر ما كتب الشاعر العبقرى ويستعرض فيها مراحل حياة الإنسان: الرضيع العاجز، الطفل كثير الشكوى، المحب المتغزل برمشي حبيبته، الجندي الشرس، القاضي العاقل، الشيخ المتحكم في قدراته ثم العجوز العائد إلى نقطة الانطلاق "دون أسنان، دون بصر، دون ذائقة، دون أي شيء".

Sans teeth, sans eyes, sans taste, sans everything.

كنت في السنة الرابعة ثانوي في المدرسة الصادقية، عندما أجبرت على حفظها، والحال أنني كنت كبقية التلاميذ في بداية تعلم اللغة الإنجليزية لكن عقولنا التي أجبرت على حفظ شعر جاهلي لا تفهم أكثر كلماته، استطاعت هضم هذه "المحنة" الأخرى.

ترجم حسن حجازي وهو شاعر مصري، القصيدة فأعاد كتابتها وتصرف فيها كما شاء وأنهاها بدعاء وكان شكسبير مسلم ورع تقي.⁴

هكذا ترجم بداية القصيدة:

4 - <http://kenanaonline.com/users/Hassanhegazy/posts/285481>

*All the world's a stage,
And all the men and women merely players;
They have their exits and their entrances,
And one man in his time plays many parts,
His acts being seven ages.*

العالمُ في الغالبُ مسرحٌ كبير،
ومعظمُ الرجال والنساء عليه مجرد ممثلين
لكلّ رجل وامرأة، دورٌ عليه يسير
كلُّ له دخولٌ وخروج، حسب الرؤيا والتدبير
والرجل الواحد في عمره يلعبُ عدّة أدوار،
مشاهده تمتدُّ لسبعة أعمار.

توقف عند المقطع الذي يصف فيه شكسبير مرحلة الشباب

*Then a soldier
Full of strange oaths and bearded like the pard
Jealous in honor, sudden and quick in quarrel
Seeking the bubble reputation
Even in the cannon's mouth.*

وترجمته حسب حجازي:

ثم يأتي دور الجندي المغوار
يملؤه الحماسُ لنصرة الأوطان
بلحية كالنمر الجبار، على شرف الأوطان يغار
مياغته سريعٌ في ساحة الوعى والنزال
أريبٌ في ساعة الطعان
يبحث عن الشهرة الزائفة والإعلان

لاحظ أن الترجمة الدقيقة هي "باحثا عن صيت كالفقاعة ولو في فم المدفع"
وليس "باحثا عن الشهرة الزائفة" كما ترجم حجازي.

هل يسخر شكسبير من أغلب البشر وتحديدا من المتنبّي، الذي قضى عمره
يبحث عن الصيت ولو في شفرة السيوف، أم تُراه يسخر من المعريّ
القائل:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

بالنسبة للشاعر العريّف بطبائع البشر وبنفاهة ما يطمحون له، هذا المجد
الذي يجري الكثيرون وراءه أشبه ما يكون بفقاعة الصابون: المظهر
البراق، الهشاشة والزوال السريع.

أيعقل أن نضع على المحكّ حياتنا وهي أئمن ما نملك من أجل شيء كهذا؟
حتى لا نحكم على أغلب الناس - سواءً نجحوا أم فشلوا في قضاء حاجتهم
من الأمر- بأنهم كمشة من الأغبياء، علينا تفكيك الموضوع إلى أسبابه
ودوافعه. البحث عن المجد بلغة المتنبّي والمعري، وعن الصيت "الفقاعي"
بلغة شكسبير، هو المُحَقِّز وراء عمل الشاعر والأديب والعالم والسياسي
والصحفي والعسكري؛ ولولا هذه الشهوة العارمة للمجد لامتألم العالم
بالخاملين، ولما كان له الوجه الذي نعرف. المجد أو وهمه هو الطعم الذي
يصطادنا به الكائن الأكبر الذي نتحرك داخله، والذي نسميه المجتمع. كما
يعيش الجسم بخلاياه التي يستغلها أحسن استغلال ويضحى بها دوريا عندما
يتطلب الأمر؛ كذلك يفعل المجتمع. فمن أقوى الإغراءات التي وضعها
ليستخرج من الأفراد كل طاقاتهم، مكافأتهم بالشهرة الفقاعية، تماما كما

تفعل الحياة مع الأزواج؛ تكافئهم بلذة الحب والجنس وهمّها الوحيد تواصل النسل. هكذا ترى البشر يكدون ليلا نهارا، يلهثون وراء فقاعات الشهرة، يعتقدون أنهم يجرون وراء تحقيق أهدافهم وهم لا يحققون إلا أهداف المجتمع.

كنت أنا نفسي أجري غير واع وراء الشيء الذي خطه لي مجتمع يبحث عن تحرره ولا يهمله الثمن الذي يدفعه أنا وأمثالي لذلك لم تحفظ الذاكرة طوال هذه العقود إلا البيتين التاليين:

Seeking the bubble reputation

Even in the cannon's mouth

مما أذكره أنه يوم خطفني البوليس السياسي في قلب العاصمة صيف 1999 وأدخلوني زنزانة خانقة بقبو في وزارة الداخلية، نظرتُ إلى الحيطان بالغة الفذارة، فتصاعدت من الأعماق ذكرى قصيدة حورّ الفكر فيها بيتا واحدا ساخرا من وضعه ومن الدهر:

Seeking the bubble reputation

Even in the most dirty cells

المجد هو أيضا القيد الذي يصدقنا به المجتمع. كم من آدمي تورط في البحث عنه، بعد أن ربّاه القيل والقال طوال حياته على أهمية الإمساك بالطريدة الثمينة، فأضاع كل فرص التمتع بالحياة ونعّصها على الملايين! انظر المصير التعيس لأشخاص مثل نابليون وهتلر وستالين. أخيرا لا آخرا هو نقطة الضعف التي تعمل القوى التي تتحكم فينا على استعمالها. تفضح الرغبة العارمة في الشهرة الفقاعية، والتي تصل حد المرض عند البعض،

خاصية أساسية في ذات مرتبطة الوجود بالآخر. هو ليس فقط من يمكنها من الظروف الدنيا للبقاء وإنما هو من يُرضي حاجة ماسّة لا تقل عن حاجة الأكل والشرب والجنس، إنها حاجة الاعتراف.

أغلب عذابات الذوات الجريحة فقدان هذا الاعتراف الذي يؤسس لوجودها، وأغلب حالات تورم الذات نتيجة بحث محموم عن اكتساب هذا الاعتراف مهما كان الثمن. هذا الشرخ في الذات هو الذي يستغله العقل الجماعي لتطويع إرادتنا لإرادته وهمّه بقاؤه لا بقاءنا، تطوره لا تطورنا، مصالحه لا مصالحنا.

نحن إذن ضحية خدعة كبرى يصنعها لنا الآخر ونصنعها له. لكن ما البديل والزهد والتعفف وادعاء الإيثار ليست أغلب الوقت إلا استراتيجيات أخرى للذات الهشة جريا وراء... نفس الشهرة الفقاعية؟

الشعر صرخة الذات الموجوعة

شغل أبو الطيب الناس في كل العصور. مجده الكثيرون كالطيب صالح الذي كان يسميه الأستاذ. ذمه الكثيرون وقال فيه طه حسين ما لم يقله مالك في الخمر.

من يحبونه لا يرون إلا شعره ومن يكرهونه لا يرون إلا الشاعر المتكبر. إنها الخصومة القديمة بين النقاد الذين لا يهمهم إلا النص، وبين الذين يرفضون فصل هذا الأخير عن كاتبه، فإنه لا يفهم الأول عندهم دون الثاني.

بعيدا عن خصومات قديمة متجددة ومن موقف شخصي بحث لا يطمح لادعاء أي موضوعية، أراني مجبرا على الاعتراف بأن إعجابي بالشعر والشاعر على حد سواء، تضاعف بتقدمي في العمر، ليتمازج اليوم بقدر كبير من الاستهجان والسخرية وحتى من الرثاء.

يطرح علينا هذا الشاعر أكثر من غيره إشكالية محورية في الشعر تعرضت لها بسرعة عند حديثي عن الشنفرى: هل بوسع جمال اللغة تغطية بشاعة المشاعر والأفكار؟

أنظر بعض " القيم " التي يدعو لها شعر المتنبى.

العنف:

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

العنصرية:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ان العبيد لأنجاس مناكيد
الانتقام:

من كل قاضية بالموت شفرته ما بين منقم منه ومُنقم
التشاؤم:

غاض الوفاء فما تلقاه في عذو وأعوذ الصّدق في الإخبار والقسم
عن تمجيد الذات والتباهي بها صنف جلّ أبيات الديوان. من يقلب شعر
الرجل لا يعثر فيه إلا على موضوع رئيسي: المتبني.

لم يمدح إلا ذاته من بين كل من مدح. لم يهج إلا من لم يعطه حق قدره.
لم يصف معركة إلا ليتحدث عن بطولاته. لم يأت بحكمة إلا وكانت لتأكيد
حكيمته. لم ير شاعرا قبله أو بعده، أو حتى شخصا يضاهيه في عظمته.
اليس هو القائل:

وما الدهر إلا من رواة قصاندي إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يُغني مغردا
ودغ كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والأخر الصدى

نحن إذن أمام ذات تمركزت كالشمس وسط النظام الشمسي، وكل الذوات
الأخرى أجرام تدور في فلكها... ذاتٌ انتفخت إلى الأقصى كبالون طفل
على وشك الانفجار. إنه تورّم الذات في أقصى مراحلها وإلا كيف نفسّر هذا
البيت:

أمط عنك تشبيهي بما وكأته فما أحدٌ فوقى ولا أحدٌ مثلي

إنه ادعاء لا يجوز إلا لنبيّ. هل هذا سبب اللقب الذي أطلق بمزيج من التهكم والإعجاب على رجل نسينا أنه يُدعى أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي!؟

لقائل أن يقول طفرة نرجسية نجدها عند أكثر من عبقرى. حقاً؟ عودة لهذا المفهوم الدخيل علينا.

النرجسية كلمة مترجمة عن أصل فرنسي Narcissisme اشتقت هي الأخرى من اسم بطل أسطورة إغريقية اسمه نارسيس رواها الشاعر اللاتيني Ovide . تقول الأسطورة إنه كان صيادا بالغ الجمال، صدّ كل عشاقه رجالا ونساءً، لا يفهم سرّ عشقهم له؛ إلى أن اكتشف صورته في صفحة بحيرة هادئة، فوقع في غرام نفسه وبقي مرابطا مكانه إلى أن مات تملؤه الحسرة والشعور بالقهر؛ إذ كيف يكون وصال حبيب لا حبّ لغيره وهو مجرد صورة في مرآة؟

هل وقع المتنبى في غرام ذاته مثل نارسيس وقد اكتشف في مرآة شعره عظمة لا تقاس بعظمة؟

أميلُ لتفسير معاكس تماما، أي أن المتنبى لم يفاخر بذاته ولم يبالغ في مدحه لنفسه إلا لعقدة متأصلة لديه.

والأمر جزء من ظاهرة تعبر الشعر العربي لا أسهل من التدليل عليها بأكثر من مثال.

ثمة دوما وراء عملية النفاخر شرخ أو جرح في الذات.

كل جعجة عمرو بن كلثوم حول الجابرة الذين يخرونّ ساجدين لرضع
قبيلة ضاق البرّ عنها وملأت البحرَ سفنا، ردة فعل على إهانة الأنا
الجماعية التي تعرض لها وبيت القصيد هو الذي يقول فيه:

بأيّ مشينة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

الجرح معروض على الأنظار بكل وضوح عند عنتره، والشرخ امتهان
قومه له بحجة اللون:

قد كنت فيما مضى أزعى جمالهم واليوم أحمي جمالم كلما كئبوا
لئن يعيوا سواي فهو لي نسب يوم التزال إذا ما فاتني النسب

عند الشنفرى، الفقر والولادة من أمة فارسية هما نواة الإهانة الأصلية. ها
هو يخاطب فتاة اسمها قعسوس ضربته على قفاه تذكيرا له بمكانته في
السلم الاجتماعي:

ألا ليت شعري والتأهف ضلة بما ضربت كفّ الفتاة هجبتها
ولو علمت قعسوس أنساب والدي ووالدها ضلّت تقاصر دونها
أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصبا وأمي ابنة الأحرار لو تعرفينها

الشرخ الأصلي عند المعريّ هو العمى الذي جعله يصرخ متحدّيا عجزه
وتبعيته لكل الذين يتمتعون بنعمة حرم منها.

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

أو قوله:

كل المرضى النفسيين بعقدة تفوق؛ والعقدتان في علم النفس وجهان لنفس العملة الفاسدة.

فرضية لا يُعتمد عليها كثيرا، فطه حسين متحامل على المتنبى لا يُخفي كرهه له، ربما لأن ذاته المتورمة كانت تغار من ذات أكثر تورما.

هل ثمة بعض الدلائل في شعر الرجل؟

نستشف من الكثير من أبياته غضبا مكتوما وهو لا يكسب قوته ومكانته إلا من فئات ملوك وأغنياء، مضطرا لتملقهم رغم احتقاره لهم.

هل ثمة سبب أعمق من شعوره بالإهانة؟ هل يكون رأى نفسه فعلا جديرا بالملك وحتى بالنبوة بينما كان للواقع رأى آخر؟

تبقى طبيعة الجرح المؤسس - إن صحَّ التعبير - سرا تكتم عليه الشاعر بكثير من النجاح.

المهم أن أحيالا من الذوات المجروحة ردّت أبياته وقد قسا عليها الواقع اللعين كما قسا على أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي. ربما لا يوجد هذا العدد الهائل من محبي المتنبى على مرّ العصور إلا لأنهم وجدوا في كبريائه المجروح كبريائهم الذي عبثت به يد الدهر. لكن هل أعطاهم حقا الوصفة الفعالة للبرء من المرض الذي ولد له ولهم ذلك القدر الكبير من الآلام؟ طبعا لا، إذ كل ذات تبحث عن برء جرحها بالتورم، مواجهة بالفشل الحتمي.

محكوم على كل ذات أن تأتي العالم بتقب أسود من الفراغ في وسطها. إنه بئر بلا قاع، ارم داخله كل ما تحصل عليه من مال وشهرة وتعظيم، فلا يمتلئ أبدا وتبقى الذات التي لا تشبع تصرخ مثل نار جهنم، هل من مزيد؟

من ثم عبث قول شاعرنا:

أرِيدُ مِنْ زَمَنِ، ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي، مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ

أفضل أبيات المتنبي عندي التي أجزم أنها اكتشافه عبث محاولة ملء الثقب الأسود، وربما توصله إلى تلك السكنينة التي تملأ الروح عندما تتوقف عن الجري وراء السراب:

لَا تَلْقَ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ مَا دَامَ بِصَحْبٍ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ
فَمَا يُدِيمُ سُرُورًا مَا سُرِرْتَ بِهِ وَلَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْقَائِلَتِ الْحَزَنُ

العامل الثاني لفشل الذات المتورمة أنها لا تتحرك في فضاء فارغ وإنما قدرها الارتطام بكل الذوات المتورمة الأخرى، تضيف للجروح جروحا وتزيد الأقدم تعقنا.

هكذا ارتطمت الذات المتورمة للمتنبي بالذات المتورمة لقاطع طريق (يُدعى ويا لصدف الأسماء "فاتكا" وإضافة لسخرية الأقدار "ابن أبي جهل") قتله وهو على الطريق بين واسط وبغداد، ثارا لكرامة ابن أخت هجاء المتنبي. يقال إنه سخر منه لما حاول الفرار: أتفرّ وأنت القائل "الخيّل والليل والبيداء تعرفني"؟

إنها نهاية عبثية مأساوية لرجل لم يفهم أن الإنسان لا يزيد في قيمته نسب أو ثراء ولا ينقص منها إعاقة أو فقر. هو المخلوق الحامل لبصمات الخالق ومن ثم هو مثل زمرّدة يتيمة لا تشعّ أو تسوى أكثر أن وضعت في صندوق من العاج مثلما لا تشعّ أو تسوى أقلّ إن لفت في خرق بالٍ.

من تورّم الذات إلى جلدها في الشعر العربي

تعرف كل الأمم بالطبع ظاهرة التكبرّ والغرور والتباهي والسعي للسيطرة. طبعاً نستهن نحن العرب مثل هذه المواقف والتصرفات. يبقى أن جلّ تراثنا مشبع -حتى لا نقول مسمّم- بظاهرة تورّم الذات. ف شعر كالذي يقوله أبو الطيب وغيره لا مجال له في الثقافة اليابانية أو الصينية، التي تستهن وتمنع التكبرّ وخاصة المجاهرة به مقدّمة التواضع باعتباره فضيلة الفضائل.

أما الثقافة الغربية التي جعلت من الفردانية دينها المخفيّ، فمشروعها ليس تأليه الفرد كما يتبادر للذهن وإنما تساوي كل الذوات في الحقوق والواجبات.

لقلنا أن يقول: لا أحد يتعنى اليوم بأمجاده الشخصية على طريقة المتنبّي، أو بقبيلته أو شعبه على طريقة عمرو بن كلثوم.

صحيح، لكن الأمر ليس مؤشراً على الشفاء وإنما على تحوّل طريقة التفاعل مع المرض. فأمام فشل ردم الشرخ الأصلي للفرد والمجموعة، نرى الذات المريضة تدير عنفها المكتوم وضغينتها على العالم، لداخلها.

إنه زمن جلد الذات لذاتها وقد أصبحت هي المتكفلة بصبّ مزيد من الحامض على الجرح، المفتوح على الدوام.

انظر قول محمود درويش:

نحن في المذباغ أبطل

وفي التابوت أطفال

وفي البيوت صور
ليتهم لم يكتبوا أسماءنا "

أو قوله:

"معتقلون داخل النص الذي يكتبه حكامنا
معتقلون داخل الدين كما فسرهم إمامنا
معتقلون داخل الحزن وأحلى ما بنا أجزائنا
مراقبون نحن في المقهى وفي البيت
وفي أرحام أمهاتنا!!
مقتلعون نحن كالأشجار من مكاننا
مهجرون من أمانينا وذكرياتنا
عيوننا تخاف من أصواتنا
مسافرون خارج الزمان والمكان"

انظر قول البياتي:

"ها نحن فئات
في مقاهي الشرق
نسطاد النباب
نرتدي أقمعة الأحياء
في مزبلة التاريخ أشباه رجال"

قدّر مسافة انزلاق اعتبار الذات، من عمرو بن كلثوم وصولاً إلى نزار
قباني، وهو يصدر في بيت واحد حكمه على أمة بأكملها: "غسل الله من
قريش يديه".

هكذا بقي رقااص العصاب العربي ينتقل من المتنبى إلى درويش ومن عمرو بن كلثوم إلى نزار قباني والسبب بديهي: كما يصاب الجسم بالعطب نتيجة تعرضه للجراثيم والفيروسات والتلوث، تصاب النفس بالعطب نتيجة فشل أو إفشال ما تطمح إليه، أو نتيجة إذلالها بالتمييز حسب الجنس والعرق والطبقة والانتماء الطائفي والعائلي.

عندما تصاب الذات بمثل هذا العدوان، تنكش عند البعض هربا من المواجهة، وتورم عند البعض الآخر بحثا عن التعويض المنتج للمستبددين والمتطرفين، وإن فشلت تدخل في عملية تدمير لذاتها.

نحن على هذا الحال منذ أكثر من أربعة عشر قرنا نعيش الهزات النفسية الهائلة، والرقاص يقفز من أقصى تورم الذات الفردية والجماعية إلى أقصى تحقيرها، ومن أقصى تحقيرها إلى أقصى تورمها.

كأن قدرنا الخيار بين المرّ والأمرّ: إما انسحاق الذات وإما تورمها وفي كلتي الحالتين الدليل الساطع على فشل الجماعة والفرد.

لن نصل لنقطة توازن تجعلنا أمة سوية مكونة من أشخاص أسوياء إلا عندما ننجح في خلق الثقافة والسياسة والاقتصاد والتربية التي تضمن وتتعهد وتطور أئمن ما يحتاجه الفرد والمجموعة: الكرامة.

المتنبي وشيم النفوس

الظلم موضوع قارّ في الشعر العربي، تناوله من كل جوانبه تقريبا:
وصف طرفة أشجع أنواعه:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند
حذر عليّ بن أبي طالب من مخاطره:

لا تظلمنّ إذا ما كنت مقتدرا
فالظلم مرّعة يُفضي إلى الندم
تتأمّ عيئك والمظلوم مُنتبه
يدعو عليك وعين الله لم تنم
تشمت الشافعي في أصحابه مسبقا:

إذا ما ظالم استحسن الظلم مذهبها
ولجّ عتوا في قبيح اكتسابه
فكله إلى صرّف الليالي قاتها
ستبدي له مالم يكن في حسابه
توعّد أبو العتاهية مرتكبيه:

ستعلم يا ظلوم إذا التقينا
غدا عند الإله من الظلوم
إلى ديّان يوم الدين نمضي
وعند الله تجتمع الخصوم
يقطع المتنبي مع كل هذا التوجه العام الذي يمكن أن نسميه "الأخلاقوي".
هو لا يخشى الظلم بل لا يضيره أن يدعو إليه:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا
لمن بات في نعمانه يتقلب

لقائل أن يقول إن الشاعر لا يدعو إلا لظلم الظالمين، وهذا موقف مقبول
فنحن قوم لا ندير خدنا الأيمن لمن صفعنا على الخد الأيسر.

من الصعب الاقتناع بأن الرجل معنيّ فقط بظلم من يظلمه إذا أنت أخذت في الحسبان رأيه في البشر عموماً.

انظر القصيدة التي مطلعها: "لهوى النفوس سريرة لا تُعلم": يغوص المتنبّي داخل هذه النفوس، باحثاً عن نواتها الأصلية التي تشكل شيمها ونُسميها اليوم طبيعتها. يا لهول ما يكتشف:

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعنة لا يظلم

هو لم يقل الظلم من شيم بعض النفوس وإنما قال بصريح العبارة والتعميم الواضح، إنه خاصية النفوس أي كلها. للتأكيد يضيف أنك حتى ولو وجدت "ذا عفة" باعتباره للقاعدة فإنه يتجنب الظلم "لعة" أي لسبب ما، قد يكون عدم تفتّنه لكل ما كان بوسعه ربحه من المظلمة... أو لأنه تفتّن للأمر لكنه حسب الأمور بدقة فاكتشف أن ارتكابها مكلف فضلّ مواصلة التستر بعفته ومردودها أضمن.

له نفس الموقف في بيت آخر:

ولم تُزلّ قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا نوي رجم

أي أمل إذن لِدِين أو قانون أو أخلاق أو عنف في إصلاح ما يتضح أنه مكوّن طبيعي، ثابت، متجدّد، أزلي للذات؟

لسنوات طويلة شكّل لي بيت "الظلم من شيم النفوس..." منعصاً أساسياً وهو يهمس في فكري: ناضلّ من أجل العدل يا سيزيف. مثل بطل الأسطورة أنت وأمثالك ستطلعون بالصخرة إلى قمة الجبل، وفي كل مرة

ستتدحرج إلى السفح فتعيدون الصعود بها وتعيد السقوط بكم... إلى ما
لأنهاية.

عبث إذن ما نناضل من أجله طوال حياة كاملة لم نبخل فيها بتضحية!!!
واصلَ شيءٍ بداخلي رفضه للبيت، لا لفظاعة تبعاته إن سلمنا بصحته،
وإنما لأنه كان متعارضا مع الواقع الذي كنت أعايشه.

كم من حركات دينية سياسية نقابية فكرية، تجنّدت دفاعا عن المظلومين
ورفضا للظلم طوال التاريخ؟

كم من ثورات قامت رفضا له؟

كم من جهد بذلته وما تزال تبذله كل المجتمعات لإشاعة العدل، أو على
الأقلّ للحدّ من الظلم؟

كم من أشخاص تجنّدوا للدفاع عن بشر لا يعرفونهم، مثل من يناضلون في
صلب منظمة "العفو الدولي"؟

"الظلم من شيم النفوس" أمر لا جدال فيه... وكذلك هو العدل. وإلا فكيف
نفسّر الظواهر التي ذكرنا وثبات تكرارها على مرّ الزمان وفي كل
المجتمعات؟

ذات يوم تبخرت كل القوة التخريبية المحبّطة لذلك البيت، حين انتبهتُ إلى
أن المنتبهي لم يصف في الحقيقة إلا النصف الفارغ من الكأس.

كيف هو النصف المألن؟

لم أكن يوما شاعرا ولم أكتب قصيدة في بنت الجيران وأنا مراهق، ولست
من عشاق معارضة كبار الشعراء أحاول الارتقاء سحريا لمصافهم، لكنني

وضعت يوما البيت أمامي أبحث عن وصف للنصف المألن الذي تغاضى عنه المنتبى. هو يقول:

الظلم من شىم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعنة لا يظلم

ماذا لو كتبت استنادا لما حرك ألف مناضل ألماني ضد النازية، ويهودي ضد الصهيونية، وأبيض جنوب إفريقي ضد الأبارتايد:

العدل من شىم النفوس فإن تجد ذا زلة فلعنة لا يعدل

بديهى أن هذا البيت لا يلغى صحة مقولة المنتبى. هو يضاف إليها ليمتلئ الكأس أخيرا، والنتيجة تجاور نزعة الظلم ونزعة العدل في نفس الذات.

قال المنتبى عن تارك الظلم إنه لم يتنكر لطبيعته الشريرة إلا لعلة منعه أن يكون الظالم الأزلى. لكن أليس صحيحا أيضا أن تارك العدل لم يتنكر لطبيعته الخيرة إلا أيضا لعلة ما منعه أن يكون عادلا؟

كل الغرابة أن تتجاور داخل نفس الذات خاصيتان متناقضتان كل التناقض. لا فائدة إذن في التركيز على ظلامها وهي تشع نورا، مثلما لا فائدة في التركيز على نورها وهي ظلام دامس.

لا فائدة أيضا في محاولة التخلص من أي من مكوناتها علما أن ثنائية الظلم-العدل واحدة من بين ثنائيات عديدة أخرى هي التي تشكل شىم النفوس، كالحب-الكره، الخير-الشر، العلم-الجهل، الذكاء-الغباء، الرحمة-القسوة.

نعم، من أين لنا أن ننكر أن الأدمي كائن "غبيّذكي"، "ظالمعادل"،
"طيشرير"، حتى وإن كنا لا نفهم كيف يمكن لكائن أن يجمع داخله بين
الماء والنار، فلا يتبخّر الماء ولا تنطفئ النار.

أبو نواس في خدمة الشعوبية

يقول الطيب صالح⁵: العرب، لأسباب بعضها واضح وبعضها غامض، يثيرون أحاسيس متناقضة لدى الناس. الإعجاب والكرهية والخوف والطمع والحسد والاحتقار. على العربي أن يتوقع هذا ويصبر... "وإذا كان الأمر كما قال المتنبي:

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

فإن الاحتقار يكون بمقدار ' التمام ' المحتمل و ' النقصان ' المائل للعيان."

يبقى أن "أجمل" ما قرأت في سبّ العرب قصيدة أبي نواس التي يروي فيها دخوله هو وعصابةٌ سوءٍ لا يرى الدهرُ مثلهم" خمارة، فانتبه أن صاحبها يلبس حزام أهل الذمة:

فلمّا حكى الرّثارُ أن ليس مسلماً فقلنا: على دين المسيح بن مريم؟
فأعرضَ مُروراً، وقال لنا هُجراً قلنا ما الاسم؟ قال: سَمَوَالُ
ولكني أكتى بعمرو ولا عمراً وما شرفنتي كنيّةً عربيّةً
ولا أكسببني لا ثناءً ولا فخراً ولكنّها خفتٌ وقلت حروفها
وليسث كأخرى إنّما خلقت وقرأ فقلنا له عجباً بطرف لسانه
أجدت، أبا عمرو، فجود لنا الخمرأ فجاء بها زيتيّةً، ذهبيّةً
فلم نستطع دون السّجود لها صبراً

5 - الطيب صالح - مختارات - الكتاب الثالث - ص 206

انظر "أنافة" الشنتيمة وهي تقول على لسان صاحب الخمارة الذي هو طبعاً لسان الشاعر: أيها العرب، أسماؤكم وأنسابكم، خلافاً لما تتوهمون، لا تشرّف ولا تكسب "لا ثناء ولا فخراً".

واضح أيضاً أنه يسخر من المسلمين ومن دينهم، إذ يقول لهم وهو لم يسخر بعد: اسجدوا لربكم، أما أنا فلا معبود لي سوى الخمرة ولها أسجد.

ما الذي كان يحصل لأبي نواس أو لشبيهه لو نشر هذه الأبيات في الملحق الثقافي للقدس العربي الشهر الماضي؟

مؤكد صدور فتوى بالقتل وشبه مؤكد تعرّضه لوابل لا يتوقف من الشتم والسبّ على صفحات التواصل الاجتماعي.

لم يقع شيء من هذا القبيل في ذلك العصر، بل ما حدث العكس تماماً. فلا أحد شتم أبا نواس أو طالب بتجريده من "جنسيته العباسية" أو مصادرة أملاكه وطرده خارج الحدود. أتصور أن أغلب العرب ضحكوا من القصيدة وأعجبتهم فتناقلوها جيلاً بعد جيل، لأكتبها وتقرؤوها هذه الليلة، وقد "هضمنا" هذا الشعبي الفارسي وجعلناه واحداً من أكبر شعراء لغة الضاد.

لماذا هذا الفارق الهائل في مواجهة اعتداء صارخ على هويتنا وديننا؟ لنفس السبب الذي يجعلك تستطيع أن تصرخ أمام البيت الأبيض "يسقط الطاغية" فلا يلتفت إليك أحد، وتُعتقل إن أنت فعلت نفس الشيء أمام قصر أي حاكم عربي.

في الحالة الأولى ثمة ثقة عميقة في النفس وقوة جبارة تزدرى السبّ ولا تهتمّ به.

وفي الثانية ضعف يرتجف أمام أبسط كلمة نقد.

قال أبو نواس ما قاله فينا فلم يعبأ به أحدٌ ذلك العصر، لأن الخليفة العربي كان ينظر للسحابة فيقول لها "أمطري حيث شئت فإن خراجك لي"

أما اليوم...

سنغور في مناهضة العنصرية

ليوبولد سدار سنغور (1906-2001) هو الشاعر الوحيد الذي ترأس بلدا إفريقيا (السنغال من 1960 إلى 1980). له إرث ثقافي كبير مكتوب باللغة الفرنسية، إلى جانب إرثه السياسي فالرجل منظرٌ خلق إلى جانب شاعر المارتينيك الكبير إيمي سيزار (1913-2008) وشاعر جويانا كونترانس داماس (1912-1978)، مفهوم la Negritude المترجم ب"الزنوجية".

هذه الزنوجية أكثر من حركة ثقافية وأقلّ من حركة قومية كالتي شهدها التاريخ عند الألمان أو العرب. فلا دعوة عند منظريها الثلاثة لتوحيد الزنوج في كيان سياسي واحد، أو محاولة استرجاع ماضٍ خيالي. هي موقف فخر واعتزاز بالعنصر الزنجي، أكان في إفريقيا أو أمريكا أو جزر الكاريبي، ودعوة لانعتاقه وتحرره عبر كل الوسائل المتاحة. وفيها يقول سنجور:

زنوجيتي ليست أفول العرق
إنما شمس تشرق على الروح
زنوجيتي رؤيا وحياة
مجرفتي في اليد
ورمحي يرفعه الساعد

قصر سنجور إذن المفهوم على المستوى النفسي والثقافي وحسنا فعل. فلم يدع لعنصرية سوداء تضاف إلى ما يحفل به العالم من عنصريات. لنتصور لحظة أن منديلا كان تلميذا لزنوجية متطرفة واجه بها العنصرية

البيضاء لنظام الأبارتايد. تُرى أي كابوس دموي كانت جنوب إفريقيا ستدخله وتبقى تتخبط فيه إلى اليوم؟

ما يميّز أيضا موقف المدرسة التي أسسها سنجور، أنها واجهت العنصرية بقدر كبير من السموّ والإنسانية.

يظهر هذا جليا في القصيدة التالية وخاصة في عنوانها: رسالة إلى أخي الأبيض.

هو يسخر فيها، لكن بكثير من اللطف، من عنصرية الأوروبيين والأمريكيين ووصفهم للسود بالملوّنين (Hommes de couleur بالفرنسية أو Coloured بالإنجليزية).

العزير أخى الأبيض

ولدتُ أسودا

كبرت أسودا

أسودٌ أنا في الشمس

أسودٌ أنا في المرض

وأسودٌ يوم أموت

أما أنت الرجل الأبيض

فعند الولادة وردي

في الكهولة أبيض

في الشمس أحمر

في البرد أزرق

في الخوف أخضر

في المرض أصفر

وعند الموت بلون الغبار

فمن متى... الملون؟

كم كنت أود أن يواصل الشاعر ليسخر من العنصرية بين "الملونين" أنفسهم. فكم في إفريقيا من مآسي ومهازل عنصرية بين بشر لهم نفس اللون ومع هذا يستعبدون وينزلون بعضهم البعض منازل مختلفة!

وفي البرازيل الأكثر سمرة هو الأدنى في سلم التفاضل الاجتماعي وهذه العنصرية موجودة عند العرب. لفهم الظاهرة ومغزاها لا بدّ من التذكّر أن من يتعرضون للفتح الشمس هم الكادحون والكادحات في الحقول. لذلك كانت الأرستقراطيات الفرنسيات يتفادين الخروج من بيوتهن حتى لا يخطئ أحد فيتصور أنهن من الأصل الوضع الذي يشقى بالعمل. وهذه عادة ما زالت منتشرة في كثير من البلدان الآسيوية.

المضحك في الأمر أن السمرة انقلبت شيئاً مطلوباً عند الأوروبيين وهي تعني منذ أواسط القرن الماضي أن من له لون البرونز راجع لتوه من التزلج في سويسرا أو من سياحة في تايلندا، أي أنه من الطبقة المرفهة وليس من طبقة الشاحبين الفقراء.

للحفر في الظاهرة علينا الانتباه للعنصرية بين البيض أنفسهم. ففي البرازيل، أن تكون من أصول إيطالية أو شرق متوسطة لا يضعك في نفس المرتبة مع الذين هم من أصول بريطانية، حتى وإن لم يكن الأمر واضحاً ومقنناً. خذ البريطانيين أنفسهم. أذكر في أحد مؤتمرات العفو الدولي أن كاتباً من إيرلندا الشمالية، صدّع رأسي ليلة كاملة بسبب الإنجليز

ويشكو من عنصريتهم تجاه الكاثوليك من بني قومه. الأغرب أن تجد التمايز والتمييز داخل البريطانيين الخالص أنفسهم.

ففي دراسة اجتماعية عن المكانة داخل مجّمع سكني لا يوجد فيه إلا البيض البريطانيين الأنجليكان من نفس الطبقة الاجتماعية، اتضح أن هناك هرمية قوية غير مصرح بها تفرّق بين "الخاصة" وهم أقدم السكان و"العامة" وهم الوافدون، وقد يكونوا وفدوا منذ ما لا يزيد عن عشرات السنين على الحي. العنصرية إذن قضية لا علاقة لها إلا ظاهريا بكمية مادة الميلانين التي تصبغ الجسم، علما وأن هذه الميلانين مجرد مادة كيميائية يفرزها الجسم للدفاع عن نفسه ضد إشعاعات الشمس المتسببة في أمراض كثيرة للجلد، ومنها سرطانات قاتلة.

هي موقف وتصرف داخل كل عرق وبين كل الأعراق، يعكسان الخوف من فقدان التحكم في المكان، وهو الفضاء الحيوي الكافل للأمن والغذاء، ومن فقدان المكانة أي الانتماء للطبقة الغالبة. هي في آخر مستويات التحليل مظهر من مظاهر خوف الإنسان من الإنسان، لأن الإنسان كائن خطر على كل الكائنات ومنها خطره على بني جلدته وحتى على نفسه.

بخصوص هذه اللعنة التي تلاحق البشر وهي من صنعهم، لا أعرف كتابا بالفرنسية أجاد وصف فظاعتها المطلقة قدر كتاب *le devoir de violence* (واجب العنف) لأديب مالي اسمه جامبو أولجن.

من قرأ هذا النص المبهر لهذا الكاتب المجهول والكلمات فيه قنابل وخناجر ورماح وسيوف، والمناظر والأحداث جديرة بأفخم الأساطير

الإغريقية، والشخصيات عصاره ما جادت به أقوى المخيلات الأدبية وأعمق التحليلات النفسية. يذهب البعض ربما إلى أن قيمة النص هي سبب اللغظ الذي أثاره واتهامات الكاتب بسرقة ومعارك لم أتابعها ولا أظنها انتهت إلى يومنا هذا.

أتمنى ألا أكون قارئه الوحيد، لذلك يا من تقرأ هذه المسامرة، حالما تنتهي منها، انقضّ على حاسوبك، فتش في كل المكتبات أو قل لأصدقائك أن يجدوا لك في أي مكتبة فرنسية كتاب ⁶ le devoir de violence وستشكر لي تنبيهي لك لهذا المعلم الأدبي الهائل.

هل يمكن للشعر أن يكون أداة للتخفيف من خوف هو قدر المستعبد والمستعبد على حد السواء؟ ليس بالضرورة، ولكننا نعرف دوره عبر الهجاء والتفاخر والتحريض، أي دوره في إذكاء جذوة العنف ومن ثم في النفخ على كل جمار الخوف النائمة تحت رماد تعايش بدون حبّ.

أعلينا أن نياس منه تماما؟ طبعا لا؛ أليس هو أيضا أحسن أداة للدعوة للحب والسلام؟

لهذا يقول سنغور:

يجب على الشعر ألا يختفي

وإلا على من سيعلق العالم آماله؟

نعم على من أو ماذا سيعلق العالم آماله إن اختفى منه هذا الشوق إلى الأعلى والأعمق والأجمل الذي نسميه الشعر؟

6 - <http://www.collectionscanada.gc.ca/obj/thesescanada/vol2/OKQ/TC-OKQ-5270.pdf>

إيليا أبو ماضي: ظلّمه للسياسة، إنصافه للأيدولوجيا

رغم أنني التزمت بأن تكون هذه المسامرات خالية من السياسة، فإنني لا أستطيع تفادي الحديث عنها وقد كانت السبب الوحيد في خصومة عابرة مع أحد أحبّ شعراء المهجر إلى نفسي.

صاحبتي قصائد إيليا أبو ماضي (1890-1957) طوال عقود ولا أظن أن كتابا واحدا من كتبي خلا من مقتطفات مطولة من قصائده. فالرجل ليس شاعرا بالغ الرقة فحسب، ولكنه أيضا مفكر عميق تحمل أبياته رؤيا للوجود كنت أجد نفسي في الكثير من ملامحها.

القاعدة أنك مهما بلغت من تفاهم مع من تحب فلا بدّ أن يبرز اختلاف في موضوع ما.

كيف تريد مني وأنا في غمرة النضال ضدّ الدكتاتورية أو في سدّة الحكم أن أقبل رأيا كهذا؟

واهجر أحاديث السياسة والألى
إنني نبذت ثمارها منذ نقتها
ووجدت طعم الغدر في أضراسي
من سائر الأوضار والأدناس
ومشعوز كذب ذب دسّاس
وتركتها لاثنتين: غرّ ساذج

ما أعرفه بالتجربة الطويلة في الشأن السياسي أن الغدر والأوضار والأدناس أوصاف لا يمكن أن تطلق على سياسي مثل مندلا وقد مثل على العكس الوفاء والسموّ والنظافة. لا تسارعوا للقول إنه الشاذة التي تؤكد القاعدة فهناك كمّ هائل من المنخرطين في الشأن السياسي قد لا يرقون

لمصاف مندلا وغاندي ونهرو ومن قبل لمصاف العمرين، ولكنهم قاموا
بواجبهم تجاه شعوبهم وأوطانهم بما قدروا عليه من تضحيات جسام لا
يعرف بعضها إلا الله.

ما أعرفه أيضا أن التخلي عن الشأن العام للمشعوذ والكذاب والدساس هو
بمثابة التسليم في واجب الدفاع عن العرض والأرض وترك المجتمع
فريسة للمجرمين. إنه تخلّ غير مقبول عن مسؤولية كل فرد في الدفاع عن
سلامة المجتمع الذي يوفر له شروط العيش. أما القول إنه يجب ترك
السياسة للغرّ والساذج فالأمر في أحسن الأحوال تبرير الهروب من هذه
المسؤولية وفي أسوأها الكشف عما ينطوي عليه القائل من بساطة في
التفكير وسذاجة في التصرف.

أين يكمن خطأ إيليا؟

جهل الشاعر أو تجاهله أن السياسة مدرستان، منذ القدم: مدرسة مكيا فيل
ومدرسة مندلا. هو لم يصف إلا المدرسة الأولى التي لا هدف لها إلا
الوصول للسلطة والبقاء فيها للتمتع بخيراتها وذلك باستعمال كل الوسائل
ومنها الكذب والغدر والدسّ الخ. لكن شتان ما بينها وبين المدرسة الثانية
التي لا هدف لها سوى الوصول للسلطة وممارستها لإصلاح الدولة
والمجتمع، شعارها: السياسة أخلاق أو لا تكون.

ربما ما جهله إيليا أو تجاهله هو أن المدرستين متواجدتان منذ بداية التاريخ
وستواصلان إلى نهايته في صراع أزلي يعكس ما رأيناه من ازدواجية
الطبيعة البشرية وكيف أن "الظلم في شيم النفوس / فإن تجد ذا عفة فلعله لا

يظلم" كما قال المتنبي... وفي نفس الوقت كما حاولنا أن نعارضه بقولنا إن العدل في شيم النفوس / فإن تجد ذا زلة فلعله لا يعدل.

من حقي إذن أن أعارض الشاعر الكبير في هذه النقطة تحديداً، سيّما أن النزاهة الفكرية تقتضي عدم الخلط بين كل السياسيين أو إدارة الظهر للشأن السياسي وهو في آخر الأمر شأن الجميع. بل إن الموقف السليم هو الوقوف الدائم بجانب المدرسة الأخلاقية في السياسة. والآن لنحاول تفهم الموقف رغم رفضنا القاطع له.

لو تفحصنا الأسباب التي تجعل المدرسة التي حصر فيها إيليا أبو ماضي السياسة كرية له، لاكتشفنا أنها تتعلق بازواجية الخطاب والفرق الهائل بين القول والفعل، إضافة إلى لغتها الخشبية وأفكارها الجامدة.

أنعس من يمثلون هذه المدرسة البغيضة في السياسة الفاسدون والمتشددون. انظر للمتطرفين أيا كانت عقائدهم وستكتشف فيهم ثبات أفكارهم وكأنها قدّت من الإسمنت والحديد في عالم لا شيء فيه يتغير أسرع من الأفكار؛ ستكتشف تخرج المواقف الأخلاقية التي ينادون بها... وفي هذا كل سرّ فشلهم.⁷

7- استثنائي وجه الشبه في طريقة التفكير بين أصحاب كل هذه المذاهب، رغم أن الأفكار كانت على طرفي نقيض. فقلت لماذا لا أبحث في آلية التفكير بعقلية الباحث العلمي، غير المعنى بفحوى ما يقولون. هكذا ولد لي أول كتاب: "في سجن العقل" (ويمكن تحميله من الموقع الإلكتروني)

إن نهج كل فرد منهم في القول والفعل واحد. هو تتكر لكل ما أو من يخالف رؤاه، واحتقار للأراء الأخرى وإدانة لأصحابها السائرين بالنسبة له في طريق الخطأ والخطيئة.

هو خاصة رفض للتجربة المكذبة أو المنسبة لمقولاته وتنطع لما تنضح به من رسائل. هو تجاهل لمقاومة الواقع المتحرك للقوالب الفكرية الثابتة، أو تكذيبه المتكرر لفاعلية الحلول المقترحة. هو عنف يبدأ بالكلمات وينتهي باللحركات وقد أعوزت الحجة صاحبها. هو توقف الفكر عن التفكير وهذه أكبر جريمة في حق فكرنا المحتاج للحرية احتياج الرئتين للأوكسجين.

الاتفاق مع الشاعر هذه المرة كامل بخصوص هذا النوع من التفكير الذي يسميه "المذهب" والذي تعارفنا على تسميته ب"الأيدولوجيا".

وسائلة أي المذاهب مذهبي
وأي نبي مرسل أقتدي به
فقلت لها لا يقتني المرء مذها
تتلمذت للإنسان في الدهر حقبة
نهاني عن قتل النفوس وعندما
ونم إلي الرق ثم استرقني
وكاد يريني الإثم في كل ما أرى
إلى أن رأيت النجم يطلع في الدجى
وشاهدت كيف النهر يبذل ماءه
وكيف يزين الطن وردا وعوسجا
وكيف تغذي الأرض الأم نبتها
فأصبح رأبي في الحياة كرايها
وهل كان فرعا في الديانات أم أصلا
وأي كتاب منزل عندي الأعلى
وان جل إلا كان في عنقه غلا
فلقنني غيا وعلمي جهلا
رأى غرة متي تعلم بي القتل
وصور ظلما فيه تمجيده عدلا
وكان نظام غير ما سنّ مختلا
لذي مقلة حسرى وذى مقلة جذلى
فلا بيتغي شكرا ولا يدعي فضلا
وكيف يروي العارض الوعر والسهل
وأقبجه شكلا كأحسنه شكلا
وأصبحت لي دين سوى مذهبي قبلا

يوصي الشاعر إذن بصمّ الأذنين عن كل خطاب يمجّد القتل ويرى " كلّ نظام غير ما سنّ مختلا". بل يذهب إلى حدّ لا يصله إلا الشعراء وهو يدعونا بكل صراحة ألا نتخذ ديننا سوى الذي ترسمه لنا الطبيعة، نتمثل بكل مكوناتها وننسج على منوالها، كالنجوم نشع تورا، كالماء نسقي كل العطشانيين بلا منّ، نغذي كل الجوعى لا يهمننا من سيقبل اليد التي تطعمه ومن سيعضّها.

توقف عند صدر البيت "وسائلة أي المذاهب مذهبي".

بديهى أن السائلة لا تتصور إنسانا دون مذهب يعرفه كما يعرفه الانتماء لجنس وجنسية. ردّ الشاعر رفضه القطعي أن يُحشر فيما يُحشر فيه الناس والمجتمع والأفراد. فالشاعر فوق وخارج الأطر الضيقة. هو ابن الطبيعة المتعبد للنجم الطالع في الدجى، والنهر الذي "لا يبتغي شكرا ولا يدعي فضلا" والأرض التي تغذي نبتها، "أقبحه شكلا كأحسنه شكلا".

والآن رأيُّ الشاعر في هذا المذهب الذي يرفض أن يُحشر فيه:

فقلت لها لا يقنني المرء مذهباً وإن جلّ إلا كان في عنقه غلا

هو إذن غلّ في عنق من يقننيه، مثل القيد الذي تُربط به البهائم إلى الوند أما المفقود في هذه الحالة حرية الركض في كل اتجاه، والحكم على الفكر بالدوران في نفس المساحة الدائرية الضيقة التي يحددها مكان الوند وقصر الحبل، بينما الفضاء المتسع للحرية يمتدّ في كل اتجاه إلى الأفق.

لكن أليس في هذا الموقف تطرف والشاعر يشمل كل مذهب "وإن جلّ"؟

ألستنا دوما بحاجة لعقيدة ترسم لنا صورة للعالم وترسم لنا فيه طريقا؟

ألا يحقّ لنا أن نرفض مجددا خلطا سطحيا كالذي شاهدناه عند الشاعر بخصوص السياسة؟

قبل محاولة الردّ علينا محاولة فهم ما الذي يقصده بالمذهب. لا أعتقد أنه يعني به العقائد الدينية أو حتى العلمانية التي جنّدت خيرة البشر وأحسن ما فيهم لخلاص الإنسان وتطوير المجتمعات. اعتقادي أنه قصّد شكلها المتحجر الذي رأيناه يحرك المتشددّين والانتهازيين ومن أسَميهم "الطقوسيين القشوريين".

هذا الشكل هو في كل مرحلة من تاريخ العقائد وجهها المظلم. هو انعكاس مقولاتها ومشروعها على مرآة النصف المظلم من شيم النفوس بينما وجهها المضيء انعكاسها على مرآة نصفها النير.

هو في هذه الحالة جملة من الأفكار المحنطة أصبحت شعارات فارغة من كل محتوى، وغطاءً لتصرفات المتصارعين على السلطة، تصرفات لم تعد تمتّ بصلّة لمشروع المؤسسين وهو في أساسه مشروع أخلاقي غُلف ببعض التصورات العامة حول العالم والإنسان.

المذهب أيضا هو المرحلة النهائية من كل عقيدة استنفذت مخزونها من طاقة الخلق والإبداع، وأصبحت مقولاتها وممارساتها في تناقض صارخ مع تطور المجتمعات والإنسانية. إنه قدر كل الديانات وكل الفلسفات، إذ لا خلود لأي من كائنات اللحم والعظم أو كائنات الخيال والفكر.

تتبين لنا العلاقة بين المذهب الذي يرفضه إيليا والسياسة التي يمقتها إذ لا تكون هذه الأخيرة إلا بسند يشرّع لها ويبرر وجودها وهو هذا الخطاب

الخشبي الثابت المتلاعب بقيم تتغير حسب موازين القوى ومتطلبات الصراع من أجل السلطة.

بخصوص أشهر بيت في الشعر العربي المعاصر

يقول حسان بن ثابت:

وإنما الشعر لبّ المرء يعرضه على المجالس إن كيسا وإن حمقا
وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

عفوا يا شاعر الرسول الكريم، إن أشعر بيت ذلك الذي لا يردده شخص بعينه وإنما الملايين وهي تعلم أصدق العلم أن من أنشده صدق.

خارج الوطن، إذا قلت تونس قالوا الشابي وإذا قلت الشابي، من المحيط إلى الخليج قالوا: "إذا الشعب يوما أراد الحياة، فلا بدّ أن يستجيب القدر".
كم غنينا وتغنينا وما نزال بهذا البيت أطفالا وكهولا. لكن هل نفهم حقا ما ننشد؟

البيت محمّل بإشكاليات عدّة، بل قلّ بالأغام.

تفحص هيكلية وستجد أنه مبني على تواجّه فاعلين: "الشعب" و"القدر"؛ وعلى تواجّه فعلين: "أراد" و"يستجيب".

خذ الفاعل الأول: الشعب. عن أي شعب يتحدث الشابي؟

أجهل وهو المسلم التونسي الجنوبي الزيتوني أن الانتماء الأعمق عند التونسيين هو الذي يربطهم من جهة بالقبيلة (وفضائها الجهوي) ومن جهة أخرى بالأمة، أي بشعب المؤمنين الذين يسعهم أكثر من دولة؟

هل كان يعرف أنه بانخراطه في تصور للأفراد المحيطين باعتبارهم شعبا، تبنّى مفهوما دخيلا علينا فرضته أيديولوجيا أوروبية في القرن التاسع

عشر، مصنوعة من تصورات بعض المثقفين خاصة من الفرنسيين والألمان.

قررت هذه الأيدولوجيا أن كل مجموعة بشرية جمعتها ضروريات الجغرافيا وصدف التاريخ تحت سقف نفس الدولة، تُسمى شعباً؛ ومن تبعات الفكرة أن يكون لكل شعب، مهما صغر حجمه العددي، دولته الخاصة.

هذه الأيدولوجيا هي التي ألهبت نار الحروب في القرنين الماضيين وما تزال) وقد أصبحت كل مجموعة بشرية تريد دولة مستقلة بما أنها أصبحت الشرط الموضوعي لكي تتحدد لها هوية ويوجد لها مكان بين الشعوب.

شاعرنا لم يكن إذن أمام شعب قائم الذات، بما أنه كان فاقد الدولة، وإنما أمام مشروع شعب قد يَبْنِي له دولة يكون بها وتكون به. يعني هذا بالضرورة استبدال هويته القبلية والإسلامية بهوية جديدة، على غرار الهويات الأوروبية التي أوجدت الإيطالي والألماني والصربي.

هنا يُستدعى الفعل "أراد" لتفحص دور الإرادة في عملية الخلق هذه.

على هذا الكيان الجديد الذي هو "شعب في طور التكوين" أن يشحذ كل إرادته للاضطلاع بالمهمة الكبرى: خلق الدولة التي ستخلقه. لكنه سيواجه بالفاعل الثاني، "القدر" الذي يجب الآن تفحصه من كل الجوانب.

هو إرادة القوة الخلاقة الخارقة التي يشعر بها الإنسان تحفّ به كما الهواء أو الجاذبية، ولها في العشرة آلاف ثقافة التي عرفتتها البشرية تصوران لا أكثر:

- كينونة واعية مطلقة القدرة لها اهتمام بمصير الإنسان، واتخذت ما لا يُحصى ولا يعدّ من الأسماء والصفات، وهي التي نسميها نحن المسلمون الله.

- قوة مادية عمياء لا واعية تحركها الصدف وقوانين طبيعية، وآخر همها كائن اسمه الإنسان.

مشكلتان عويصتان يثيرهما الشاعر وكأنه غير واع بخطورتهما.

الأولى وضعه الشعب والقدّر وجها لوجه وكأنهما من مستوى واحد.

كيف يجوز أمر كهذا والحال أن المجموعة التي يسميها الشعب، حتى وإن تشكلت، هي حالة عابرة لا تثبت على حال. فالشعب السعودي، مثل الشعب السلوفاكي أو المالي، مرحلة من تاريخ مجموعات بشرية كان لها في الماضي تنظيمات جد مختلفة بأسماء مختلفة، ولا قدرة لأحد على التنبؤ بالأشكال التي ستنتهي إليها أو بالأسماء التي ستخدها سنة 2050 أو سنة 2200.

القدّر على العكس من هذا، قوة ثابتة تعبر ملايين السنين.

المشكلة الثانية: لا يكفي أن الشاعر لم يتورّع عن الموازنة بين العابر والقار، بين المتحول والثابت، بل ذهب إلى أبعد من هذا بجعل الناقص يريد والكامل يستجيب لإرادته.

من أين للقدّر أكان قدر المؤمنين أو قدر الملحدين أن يأترا بأوامر البشر؟ يمكن للمؤمن أن يأمل في استجابة الله، لكن الطالب لا يتحقق إلا بالخضوع المطلق لمشيئته.

نفس الصعوبة بالنسبة للملحد؛ هو لا يُخضع الطبيعة لإرادته إلا بالخضوع الكامل لقوانينها طبقاً للقانون الذي سنّه أبو العِلم التجريبي فرانسيس باكون: "أنت لا تُملي إرادتك على الطبيعة إلا إذا أطعت قوانينها".

استجابة القدر مشروطة إذن في الحالتين بإرادته هو لا بإرادتنا نحن. ومن ثم ضرورة التعامل الحذر مع "لا بد" المرافق لـ "أن يستجيب".

والآن أهم الصعوبات: "إذا" التي ينطلق منها البيت الخالد.

"إذا" الاشتراط... التساؤل... الأمل... الرجاء... الحيرة؟

هل القصد منها التحذير المبطن لما يمكن أن يحدث في حالة رفض الشعب مغامرة الوجود؟

هل لها معانٍ سلبية في فكر الشاعر ونحن نعرف من بقية مقولاته قلّة اقتناعه بخصال هذا الشعب الذي هو في طور التكوين؟ أليس هو المتوجه لهذا الجمع المشبوه قائلاً؟

"أنتَ حيّ يقضي الحَيَاة برمس
أنتَ روحٌ غَيِّبَةٌ تكره الثور
وتقضي الدُّهُور في ليل مَلْس
أنتَ لا تدرك الحقائق إن طافت
حواليك دون مسّ وجَس"

ما الذي سيحصل إذا بقي الشعب-المشروع متردًا بين إرادة الحياة وخموله الفطري.

المصير حتمي:

"ويبقى الجميع كحلْم يبيع

تألق في مهجةٍ واندثر"

هل هي إذن نهاية الحلم الذي راود الشاعر وهو يتصور هذا الكائن الضعيف المسمى إنسانا، واقفا على أطراف أصابع قدميه شاهرا أصبعه في وجه القدر يأمره بالاستجابة لأحلامه؟ طبعا لا...

"وتبقى البذور، التي حُمِلَتْ

نخيرة عُمر جميل، غَبِرَ

البذور!"

إنها التي أُنعت بعد قرابة قرن من رحيل الشاعر، والشباب في تونس والقاهرة وصنعاء عند انطلاق الربيع العربي يهزج ويغني ويزمجر رافعا نفس الشعار: "الشعب يريد".

هل من باب الصدفة أن يكون الفاعل شعبا تبلور لا عبر دولته وإنما ضدها وأن يكون الفعل "أراد" وهو الفعل الذي يؤسس للسؤدد والقوة.

لم يعد لي من سبب لأحزن على الشبابي وقد سقطت "إذا" وأصبح غبار الأفراد شعب مواطنين يملكون دولة لا شعب رعايا تملكهم عصابة.

نم قرير العين يا أبا القاسم. الساحات تمتلئ كل جبل أكثر فأكثر بمن تحب: "أهل الطموح، من يستلذون ركوب الخطر"... مَن "يماشون الزمان لا يقنعون بالعيش، عيش الحجر"... مَن "إذا ما طمحووا إلى غاية ركبوا المنى ونسوا الحذر"... مَن "يحبون صعود

الرجال لا يعيشون أبد الدهر بين الحفر... البشر
الذين لا يتسولون الدهر وإنما يفتكون منه أحلامهم كما تفتكّ اللقمة من فم
السبع.

الدنيا بين الفصحى والعامية

تتطلب مني قراءة الشعر الشعبي جهدا يفقدي جزءا كبيرا من متعة قراءة أي قصيدة. فالذي يقرأ بيتا أكثر من مرة لفهمه كمن يحاول فهم نكتة عليه إعادة الاستماع إليها مرات قبل أن يضحك. حتى الشعر بالعامية التونسية⁸ أجد صعوبات في تذوقه، فما بالك وهو بالعامية السودانية أو العراقية أو الحسانية الموريتانية. طبعاً، هذا الشعر الشعبي لا يتجزأ من أدبنا وتراثنا، وعلينا الحفاظ عليه ودعمه، خاصة وأن له شعراء كباراً مثل أحمد فؤاد نجم، وكم من آخرين. لكن صاحبكم ابثلي صغيراً بعشق الفصحى، لم تزده تجربة الحياة إلا اقتناعاً بأنها لغة لا تضاهيها في جمالها لهجة أو لغة، على الأقل من بين التي يعرف. ومع هذا وطبقاً لقانون أنه لكل قاعدة استثناء وأنه "يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر"، فإنني مضطر لتقديم تنازلات موجعة لمناصري العامية والاعتراف أنه يمكن لشاعر شعبي أن ينجح فيما لم ينجح فيه شاعر فصحي احتلّ مكاناً مركزياً منذ قرون في الوجدان وفي كتب التدريس. نموذجاً، ما كتبه أبو العتاهية، أكثر من سبّ الدنيا وشكا منها وسخط عليها في أدبنا. انظر قوله:

8 - أقصد عامية جداتنا وليس عامية الخليج بين العربية والفرنسية، عامية النمط الذي يناور في الإعلام والإشهار أملاً في فرض الدارجة (دارجته هو لا دارجات الشعب) لغة للتعليم أقول، ما أعبي أن يقايلض إنسان لغة تفتح له فضاء زمنياً عمقه خمسة عشر قرناً وفضاء جغرافياً فيه أربع مائة مليون نسمة، بلهجة تسجنه في مجموعة بشرية تُعدّ بمئات الآلاف وفي زمن يحسب ببعض العقود. هل ننسى أن اللغة قبل أن تكون هوية هي أداة تواصل مع أكبر عدد ممكن من البشر؟ لهذا لا أحد يفضل تعلم الكرواتية على الإنجليزية.

حَلَاوَتَهَا مَمْرُوجَةً بِمَرَارَةٍ وَرَاحَتَهَا مَمْرُوجَةً بَعْنَاءِ
أَيَا عَجَبَا لِلدَّهْرِ لَا بَلَّ لَرِيْبِهِ يَخْرُمُ رَيْبُ الدَّهْرِ كُلَّ إِخَاءِ
وَشَتَّتْ رَيْبُ الدَّهْرِ كُلَّ جَمَاعَةٍ وَكَدَّرَ رَيْبُ الدَّهْرِ كُلَّ صَفَاءِ

أو قوله:

تَصَبَّتْ لَنَا دُونَ التَّفَكُّرِ يَا دُنْيَا أَمَانِيَّ يَفْتَنِي الْعُمُرُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُفْتَنِي

انظر الآن الهجوم الكاسح لشاعر مغمور، وكيف أسمع الشاعرُ الفحلُ الدنيا
“وسخ أدنيها” بكيفية لم يتجاسر بها أحد عليها من قبل. إنه حسن بن بلقاسم
بن سعيد الشعيلي، وهو شاعر شعبي من جهة الحامة، رافق علي بن خليفة
في هجرته لطرابلس بعد انهيار المقاومة المسلحة لدخول القوات الفرنسية
بلادنا سنة 1881 وعثرت بالصدفة له على هذه القصيدة التي يرثي فيها
موت البطل⁹ سنة 1885

9 - محمد المرزوقي-أعمال كاملة-القسم الأول معارك وأبطال-ص 119-دار محمد علي للنشر.

يرجع كلامنا لـدنيا الفنا
يا جالبة الفقر من بعد الغنى
يا محيرة الحي من بعد الهنا
يا صادمة معاطن يندفق بالماء
يا منزلة فرسان الفخر والفنا
يا خصاية الفحول من بعد الضنا
عاقبتك خسران يا مخسرة العنا
آخر عاقبتها الخلا والجلال تعرفش
الدنيا كيف سراب سبخة تقول
تدير غلل وتزهي إذا جاها الشتا
يا مهدمة قرطيس كانت عالية
يا منرحة الجواهي والسواقي المالية
يا مرخصة ناس كانت غالية
يشقها العطشان يابس بلايلة
يا مركبة ع العياد العباد القلايلة
يخونها الدهر تجفل بعد ما كانت صايله
وحيك بعد الجملة تفرقي شمائله
الريح الدنيا هكه مثاليه
ما حال الدنيا فاني في مثل الدالية
تطيح أوراق ال فيها وتصير بالية

مع كامل احترامي لأبي العتاهية فإنني لا أجد في قوله "الحرقه" وكل
المشاعر الجياشة التي تتزاحم عبر كلمات هذا الشاعر الشعبي، الذي لا
يعرفه إلا فئران المكتبات. وأيضاً يا لسطحية عتابه الرقيق للحياة (وأنها
حلاوة لكن ممزوجة بالمرارة.)

قارن بين اتهام باهت بأنها "تكدّر كل صفاء" و "تشتت كل جماعة" وبين
الضربات الموجعة المتلاحقة لحسن بن بلقاسم وكأنها وابل من رصاص
يخرج من مدفع رشاش: "خصاية الفحول"، "مخسرة العنا"، "مرخصة
ناس كانت غالية"، "سراب سبخة، عاقبتها الخلا والجلال".

ما من شك أن السبق في قوة الكلمات وغازاة الصور وصدق
وعمق المشاعر للمغمور لا للمشهور.

معنى هذا أن الشعر قادر، عندما تتوقّر عبقرية صهرها الألم كما تصهر
النار سبائك الذهب، أن يستخرج من أبسط لغة أروع القصائد.

معنى هذا خصوصا أن اللغة، سواءً أكانت لغة العامة أو لغة الخاصة، أداة يطوعها الشاعر، يعتصر منها كل المعاني وأحيانا يدفع بها إلى أقصى طاقات العطاء فيها. هي مثل فرشاة الرسم وكل الألوان التي تصطف أمام الفنان. أما ما يرسم على اللوحة فمتوقف على العبقرية التي يظهرها هو في استغلال كل ما تُوقر له الأداة من إمكانيات.

نقطة لصالح محبي الشعر الشعبي يعترف بها "قصوي" متشدّد.

المعري وتصوّره للحياة

بعد خروجي من السجن صيف 1994، حُجز جواز سفري وحلّ قسمي في الكلية وتمّ إعفائي من عملي بمصحة الضمان الاجتماعي في تونس، ثم من كلية الطب بسوسة سنة 2000. لم أكن أتحرك قيد أنملة إلا وورائي البوليس السياسي الرابض طول الوقت أمام بيتي.

هكذا عشت إلى نهاية 2001 - تاريخ مغادرتي الوطن للمنفى في فرنسا في شبه إقامة جبرية غير معلنة. كانت فرصة ذهبية للكتابة والقراءة وخاصة للعودة لكل الشعراء الذين أحببتهم ولاستكشاف الذين لم يسعفني زمن الصراع مع الحياة، بالوقت الكافي لقراءتهم.

لم يكن من باب الصدفة أن أعود لرهين المحبسين أنا شبه المحبوس في بيتي وأن يشدني تصوّره للحياة، أنا الذي لم أكف يوما عن البحث لها عن صورة يرضى عنها العقل ويطمئن لها القلب.

ما يجعلك تطمئن لاختيار الرجل دليلا ومرجعا، الثقة التي يبديها في النفس والقاعدة أنك لا تطمئن لشخص لا يبدو واثقا مما يقول ويفعل. يتقدّم المعري لقارئه بالتذكير أنه عرك الحياة وعركته وأصبح بخباياها خبيراً ومن ثمة قيمة ما توصل إليه من صورة معبرة عنها أحسن تعبير.

انظر قوله:

أنا بالليالي والحوادث أخبرُ سفرٌ يَجِدُّ بنا وجسرٌ يُعَبِّرُ؟

سفر يجدّ بنا؟ الحياة سفر والدنيا فضاء السفر؟ هل هذه الدنيا الفضاء الحسي والسفر فيها تنقل الجسد من مكان إلى مكان بعيد آخر لاستكشاف ما يزخر به العالم من ظواهر طبيعية وأشياء وكائنات وبشر؟ طبعاً لا؛ ففي مفهوم المعري، الدنيا هي أيضاً تجارب الذات الحسية الشعورية الفكرية مع كل مكونات العالم على امتداد خطّ الزمان الذي يقودنا من المهد إلى اللحد. يعود المعريّ للتشبيه أكثر من مرة مع إضافات توسّع الرؤيا وتجعلها أكثر دقة.

وهوّن ما تلقى من البؤس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر

ما الذي يجعلنا بني بؤس كما نحن بنو سفر؟ كوننا فريسة ألقيت من قيل مجهول في عالم مجهول لنكون طريدة لأكبر صياد:

والموت باز والنفوس حمائم وهزبر عريس ونحن فرائس

لا غرابة أن يزفر المسافر البائس:

دنياي هل لي زاد أستعين به على الرحيل فإني فيك مُحْتَبَس

وأن يتعجب من المصرين على مواصلة هكذا سفر:

تعبّ كلها الحياة فما أعجّب إلا من راغب في ازدياد

من حسن حظ بني سفر أن للبؤس نهاية:

إنّ الحياة كجسر بين موتين: أول وثان وقدّ الشخص أن يُعبّر الجسر

المشكلة أن عبور الجسر ليس بالأمر اليسير. علينا أن "نشمّر" للعبور، أي أن نستجد بأخر ما بقي لنا من قوى خائفة:

عشنا وجسر الموت قدّامنا فشمّر الآن لكي تعبره

يا له من عالم نحتاج لشجاعة كبيرة للبقاء فيه، ولشجاعة أكبر لمغادرته!

وتحملنا الأيام حمل عوائم بنا في خضم كلنا فيه قاسم
فهن لأهل اليسر نوق أنلة وهن لأهل العسر خيل شوامس
ودنياك دار من يحل فناءها فقد غمسته في الشرور القوامس
وسلطانها كالنار إن هي لومست تحرق ما يدنولها ويلامس

كيف لا تأتي مثل هذه الرؤيا السوداوية رجلا حكمت عليه الأقدار الظالمة ألا يخرج من بيته، تلاحقه المصائب كما يلاحق البازُ صغار الأرناب والطيور؟

أدققُ النظر في الأبيات بحثا عن بعض النور في كل هذا الظلام. ثمّة بداخلي شيء يقول: الرجل أذكى من أن يتوقف عند النصف الفارغ من الكأس. عليّ أن أنقب في شعره عن اعتراف ولو ضمنى، بأن الحياة لا تُحتزل في هذه اللعنة التي يصف.

هل يحمل هذا البيت ما أبحث عنه أو أتوهم؟

وردنا بلا وفر ديار حياتنا وتترك فيها يوم نرتحل الوفرا

كلمتان على قدر بالغ من الأهمية، ولا أظن استعمالهما من قبيل الصدفة: الورد والوفر.

الورد هو النهل من الماء العذب نطفئ به ليهيب العطش. انظر قول
الحلاج:

يا نسيم الروح قولي للرشا لم يزدني الورد إلا عطشا

يعترف المعري إذن أن الحياة نبع لذيذ فيه الكثير من "الوفر" ننهل منه ولا
نرتوى. مما يعني أنه هو الآخر شرب ولو شيئاً قليلاً من الماء الزلال فلم
"يزده الورد إلا عطشا".

ولم أكن أعرف في تلك الأيام التي صاحبني فيها المعري، أن الشاعر
الأعمى المبصر، قد قرّر لي مشروعاً سيأخذ مني العشرين سنة المقبلة من
حياتي. إنه حوار صامت معه حول تصور أقل قتامة لسفرنا في هذا العالم
ومغزى وجود بني سفر وما يأخذونه من وفر وما يردونه من التجارب
والدروس قبل "عبور الجسر".

هو لم يوح لي فحسب، بموضوع كتاب تتواصل مراجعته إلى اليوم، وإنما
فرض عليّ حتى عنوانه: الرحلة.¹⁰

عاش أبو العلاء طيلة حياته في الظلام لكنه كان الشمعة التي لا ينطفئ لها
نور كم أضاءت لي ولأمثالي عبر القرون جزءاً من الطريق. ترى كيف
يشكر الأموات؟

هذه الليلة التي اكتمل فيها البدر

"عندما يشير الشاعر إلى القمر ينظر الغبي إلى الاصبع"

إنه مثل صيني شهير يدعونا للنظر إلى ما يشير إليه الشاعر لا لإصبعه. إلى ماذا بالضبط؟ ليس للشيء ذاته وإنما للخاصية الأولى التي ينضح بها: الجمال طبعاً.

لا غرابة في الأمر والشاعر منذ القدم هو المنتبه الدائم لهذه الخاصية السحرية الغريبة للعالم. هو أيضاً المنبه باستمرار لها كلما تبادت الذات منغمسة في مشاكلها متناسية العالم المرعب المبهر الذي تتحرك فيه.

أنظر قول إيليا أبو ماضي

عش للجمال تراه العين مؤتلقا	في أنجم الليل أو زهر البساتين
وفي الرّبي نصبت كفّ الأصيل بها	سرادقا من نضار للرياحين
وفي الجبال إذا طاف المساء بها	ولفها بسراويل الرّهابين
فكم تماوج في سربال غانية	وكم تألق في أسمال مسكين
وكم أحسّ به أعمى فجئ له	وحوله ألف راء غير مقتون
عش للجمال تراه ههنا وهنا	وعش له سرّ جدّ مكنون
خير وأفضل ممن لا حنين لهم	إلى الجمال، تماثيل من الطين

منذ القدم والبدر هو الرمز الأكمل لهذا الجمال، لهذه الخاصية السحرية في مظاهر الكون وفي كائناته التي نتعرّف عليها من أول وهلة ونبحث عنها في كل شيء وفي كل كائن ولا أحد قادر على تعريفها أو فهمها.

ليس من باب الصدفة أن يشبّه الشعراء أجمل وجه أي الوجه الصبح للكائن المعشوق بالبدر؟

انظر قول المتنبي:

وَاسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا فَأُزَّتِي الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتِ مَع

هو الآن فوق رأسي متوسطا كبد السماء يحف به الوقار والجلال والصمت. ومن كل مكان ترنو إليه الأبصار والذوات ترتج بنفس مشاعر التهيّب والانبهار والحبّ والتعجّب والإعجاب.

كيف لا يتشارك البشر، الذين لا يُجمعون على شيء، في حب القمر وهو الذي يهبهم أئمن المشاعر والأحاسيس، كالماء لا يبتغي جزاءً ولا شكورا.

هو بيزغ "الذي مقلة جدلى وذي مقلة حسرى" كما يقول إيليا أبو ماضي، لا يخص طبقة أو عرقا أو طائفة بنوره.

حسنة أخرى تضاف لحسنات القمر الكثيرة أنه خلافا للشمس -التي لا تقل عنه جمالا في إشرافها وعند الغروب -لا يقسو مثلها أبدا على البشر والدليل الساطع أنه لم يعرف يوما عن أحد أنه مات بضربة قمر.

هو يبعث لطف المشاعر في نفوسنا وأساسا الطمأنينة؛ يهشّ على خوف الأطفال من الظلام. قلّ من يتذكّر في هذا العصر الذي تسطع فيه الأنوار طوال الليل، أن البشرية لم تتخلص من وحشة الظلام الجاثم على نصف حياتها طيلة مئات الآلاف من السنين إلا بفضل منه.

ذهب إلى أبعد من هذا ببثّ الطمأنينة في نفوس كل من يرعبهم الموت، وليس فقط الظلام.

أليس هو من أوحى لنا بفكرة البعث وهو لا يختفي في غرابة المجهول إلا
ليعود منه سليما معافى، المرة ثلو الأخرى، يطمئنا على أننا مثله عائدون
من سبات الموت؟

يقول لبيد بن ربيعة:

وما المرء إلا كاللهال وضوئه يُوافي تمام الشهر ثم يغيبُ
وكان بوسعه أن يكتب تعبيراً عن أقدم وأعمق أمل راود الإنسان
وما المرء إلا كاللهال وضوئه يغيب تمام الشهر ثم يعود
لا غرابة في مثل هذه الحالة أن يتغنى به شعراء كل العصور.
نزار قباني نموذجاً:

عندما يولد في الشرق القمر
فالسطوح البيض تغفو
تحت أكداس الزهر
يترك الناس الحوانيت ويمضون زمر
لملاقاة القمر
يحملون الخبز والحاكي إلى رأس الجبل
ومعدات الخدر
ويبيعون ويشرون خيالاً
وصور
ويموتون إذا عاش القمر

هل الشاعر حقاً وحده المنتبه ووحده المنبّه، وهل هو دوماً في حالة دائمة
من الانتباه والتنبه كما يود أن يوهمنا؟

ثمة العالم الذي نذر كل ليلاليه لتأمل أجرام السماء يحده حقا الفضول والانبهار وكل من تأملوا صور الكون التي جادت بها عدسة التلسكوب الفضائي هوبل، يعرفون جيدا انتفاء الحدود بين الفنّ والعلم.¹¹

ثمة الفنانون الذي غنّوا وغنّوا بكل اللغات بفانوس الليل.

فيروز العربية نموذجاً¹²، أو الأمريكية ألا فيتزجيرالد (Ella Fitzgerald)¹³ كم ألف له من الموسيقيين وعلى كل الآلات التي عزف عليها البشر أروع المقطوعات. دوبوسي نموذجاً (Debussy)¹⁴

يحتلّ القمر مكانا بارزا فيما لا يُحصى ولا يعدّ من اللوحات الزيتية وكل الرسامين به مولعون. ماني (Manet)¹⁵ نموذجاً.

ضع الآن أمام ذهنك في نوع من التجربة الخيالية قصيدة قباني ومقطوعة دوبوسي ولوحة ماني. ما الاختلاف بينها؟

استعمل نزار قباني الكلمات، واستعمل دوبوسي الأصوات التي تصدرها آلة البيانو، في حين أن أداة ماني كانت الفرشاة وما تؤلفه من أشكال وألوان. والمهمة واحدة: التعبير عن الطيف المركب من المشاعر التي يبثها القمر في كل ذات تتأمله.

11 - <http://hubblesite.org/images/gallery>

12 - <https://www.youtube.com/watch?v=d31jA9mAaAo>

13 - <https://www.youtube.com/watch?v=esynsha53A8>

14 - <https://www.youtube.com/watch?v=-LXl4y6D-QI>

15 - https://fr.wikipedia.org/wiki/Clair_de_lune_sur_le_port_de_Boulogne

على فكرة، لماذا يحاول ثلاثتهم عكس الجمال والتعبير عنه؟ ألا يكفي الانغماس فيه؟ ربما لأن الانسان كائن تواصلية يجب أن يعبر عن مشاعره وأعمقها انبهاره بجمال العالم وأن يبلغها للآخر ليتيقن أنهما يتشاركان في نفس التجارب الحسية الشعورية وأنهما نفس الكائن وإن تعددت منه النسخ.

سؤال هام آخر: لماذا نقصر صفة الشاعر إذن على قباني؟ أليس دوبوسي شاعرا بأتم معنى الكلمة، وكل ما في الأمر أنه عبّر عن المشاعر الجياشة التي داهمت ذات قباني، بالأصوات بينما اختار مائي أن يعبر عنها بالألوان؟ أليس من حقنا في هذه الحالة أن نقول عن دوبوسي إنه شاعر بالأصوات وأن مائي شاعر بالأشكال والألوان وأن نقول عن الشاعر قباني إنه موسيقي بالكلمات؟

هل هناك نقص في فهمنا للشعر ونحن نقصره على التعبير عن المشاعر باللغة؟ هل من باب الصدفة أن يكون الغناء والشعر كلمتين مترادفتين في العامية بالجنوب التونسي فيقال للشاعر: "يا الله غني أي ألقى قصيدتك"، ولا أن يقال في الفصحى "أنشد فلان قصيدة عصماء". ثمة إذن تواصل بين أشكال التعبير عن نفس المشاعر مما يستوجب أن تكون لنا رؤيا غير التي تفصل وتضع الحدود.

لنتصور الطاقة الغريزية، المصنوعة من مشاعرنا ومن إرادة التعبير عنها. عندما "تلبس" هذه الطاقة الأصوات نحصل على الموسيقى، وعندما "تلبس" الأشكال والألوان نحصل على كل الفنون التشكيلية، وعندما "تلبس" اللغة نحصل على ما نسميه شعرا بالعربية ونحن بهذا المصطلح كمن يختزل مصر في القاهرة والعرب في البدو.

توجهان لا غير في الفكر البشري :

الأول نحو التماهي مع العالم والذوبان فيه، والدافع إلى الشعور بأنه ليس للفهم وإنما للتأمل، للإعجاب والتعجب لا للسيطرة والاستعمال. إنه الذي أعطانا الموسيقى والرسم والنحت والشعر.

الثاني: نحو التحكم في العالم عبر كشف أسرارهِ، ومحاولة توظيفها للدافع إلى إرادة الفهم والسيطرة. إنه التوجه الذي أعطانا الأساطير، والأديان، والفلسفات والعلوم السحرية ثم الصحيحة.

يعتقد أغلب الناس أننا أمام مسارين متوازيين لا يتلاقيان أبداً. خطأ، ففكرنا ووجداننا مقسّم دوماً بين التوجهين، وكل ما في الأمر أن أحدهما يغلب عند فرد أو عند مجموعة أو في ثقافة ما لفترة من الزمان، لكن الجزء الآخر لا يختفي أبداً. ومن ثمة تعنّينا بالبدر من جهة ومن جهة أخرى سعينا لبناء مستعمرات فوقه للاستيلاء على ما قد يحتويه من نفيس المعادن.

مجرد رأي أوحى لي به هذه الليلة ضوء القمر.

ابن عربي الشاعر الذي بنى للحبّ محراباً

سنة 1989 دُعيت بصفتي رئيساً للرابطة التونسية لحقوق الإنسان للمشاركة في تظاهرة ضد العنصرية في باريس، نظمتها جمعية S.O.S Racisme، حضرها نخبة من كبار الحقوقيين في العالم ورئيس فرنسا آنذاك فرانسوا ميتران.

لمّا جاء دوري لإلقاء كلمة، قلت تقريباً ما يلي: العرب أمة إن كانت تعاني ككل الأمم من شوائب التعصب والطائفية والعنصرية، هي أيضاً أمة تقدّم لأطفالها منذ أربعة عشر قرناً رمزا للشجاعة أسودا اسمه عنتر، ورمزا للوفاء يهوديا اسمه السموأل، ورمزا للكرم -أهم قيمة عندها- مسيحيا اسمه حاتم الطائي.

فاجأني وابل من التصفيق. ما أغرب ألا نقدم للعالم إلا أقبح ما عندنا والحال أن لنا كمّا من خصائص جدّ جميلة لا يعرفها الآخرون عنا ولا نعرفها حتى نحن عن أنفسنا.

واصلت (بشيء من الغمز اللطيف من قناة أصدقائنا الفرنسيين) قائلاً إن التسامح فكرة عظيمة دافع عنها العظيم فولتير، لكن أكبر من دافع عنها هو محيي الدين بن عربي.

(ولم أرد أن أركّز كم من قرن قبله على عادة التقلد منا في تذكير الغربيين بأيادينا عليهم).

للتدليل أشدّتهم أشهر أبيات قصيدة "ألا يا حَمَامَاتِ الأَرَاكَةِ والبَّانِ" محاولاً ألا تضيع الترجمة رونقها الأصيل وهي التي يقول فيها ابن عربي:

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلَّ صُورَةٍ فَمَرَعَى لِعِزْلَانٍ وَدِيرٍ لِرُهْبَانٍ
وَيَبِيتُ لِأَوْثَانٍ وَكِعْبَةٍ طَائِفٍ وَالْوَاخِ تَوْرَاةٍ وَمَصْحَفِ قُرْآنٍ
أَدِينُ بَدِينِ الْحَبِّ أَتَى تَوَجَّهَتْ رَكَائِبُهُ فَالْحُبُّ دِينِي وَإِيمَانِي

صقق الحاضرون طويلا وخلصتُ القصة انتهت لكنها كانت في بدايتها.

حال نزولي من المنصة تقدّم لي رجل لا أعرفه قائلا: أنا إيلي فيزيل، تأثرتُ جدّ التأثر بهذه الأبيات. الصيف المقبل سأنظّم في أوسلو تحت رعاية مؤسسة نوبل للسلام، ندوة حول موضوع "لماذا نكره بعضنا البعض". يشرفني أن تقبل الدعوة وأن تتشد هذه الأبيات مرة أخرى.

كان الرجل كما عرفتُ فيما بعد حاصلا على جائزة نوبل للسلام وله قصة طويلة باعتباره طفلا يهوديا من رومانيا دخل المحتشدات النازية في الخامسة عشر من العمر ثم أصبح كاتبا يشار له بالبنان.

هكذا وجدتُ نفسي صيف 90 في أوسلو من بين نخبة من المدعوين لهذه الندوة... جالسا في حفل الافتتاح جنبا إلى جنب مع نلسن منديلا، والشكر للأبجدية التي وضعتني حذو واحد من عمالقة التاريخ البشري.

كان من بين كبار الحاضرين في المؤتمر أيضا ميتران وفاكلاف هافل، الذي سيصبح رئيس الجمهورية التشيكية، والرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر.

أذكر أن هذا الأخير تجاوز بدقيقة واحدة الزمن المحدد بعشر دقائق لكل تدخل. رنّ جرس رئيس الجلسة فصمت كارتر في منتصف الجملة. قلت في نفسي، إذا عامل المشرفون الرئيس السابق للولايات المتحدة هكذا فكيف سيعاملون رئيس جمعية حقوقية مغمورة في بلد صغير.

حاذرت إذن ألا أتجاوز الوقت مرگزا على أبيات ابن عربي الثلاثة.
دوى التصفيق طويلا وطويلا. نفذت الأبيات الخالدة لقلوب الجميع مرة
أخرى كما تفعل منذ قرون.

أتصور أن منديلا كان من بين الذين صفقوا طويلا للشيخ العربي المسلم.
من أحسن منه لفهم هذه الأبيات وهو الذي فتح قلبه لألد أعدائه.
لم أكن أعرف يومها أنه سيسلمني من الغد رسالة بخط يده للحقوقيين
العرب والأفارقة، وأنه سيتدخل شخصيا سنة 1994 لإطلاق سراحي،
وأني سأذهب بعد عشرين سنة باعتباري رئيس دولة أمثل الشعب التونسي
في جنازته المهيبه.

من أين لي أن أعرف وأنا أقرأ لابن عربي في السبعينات والثمانينات
ديوانه "ترجمان الأشواق" أن من سأسميه في كتابي الرحل "المعلم
الأسمي"، سيوجه مجرى حياتي في أكثر من تقاطع طريق.

ثرى ما الذي كان يحصل لي لو لم أقرأ باكرا ابن عربي؟ هل كنت
سأعرف منديلا عبر طريق آخر؟ هل كنت سأخرج من السجن بعد أربع
سنين لا بعد أربعة أشهر لو أن طريقي لم يتقاطع مع طريقه؟ بل هل كنت
سأدخل يوما قصر قرطاج والمعلم الأسمي هو الذي عبّد لي طريقه عندما
قبلت نصيحته بأن أفتح قلبي لكل صورة ففتحتها للإسلاميين والعلمانيين
ولكل الناس.

كان مانديلا تلميذ ابن عربي وهو لا يدري، أو قل إنه اتبع تلقائيا الطريق
الذي اتبعه قبله الشيخ الجليل، والذي لن يعدم أبدا الماشين، على قلتهم على
عكس الطريق الآخر المكتظ بالأشقياء معدّبي أنفسهم ومعدّبي الآخرين،

لأن قلوبهم رافضة لكل من لا يشبههم، دينهم البغض وكل ما يحركهم
الغضب ورغبة السيطرة وشهوة الانتقام.

طاغور أكبر تلامذة ابن عربي

قادتني قدمي للهند وأنا في الثالثة والعشرين من العمر، بعد أن فزت بالجائزة الأولى لمسابقة دولية عن المهاتما غاندي، في ذكرى مؤيته الأولى.

هناك فتحت عيني على عالم مبهّر شاسع ثري، خاصة وأن الهند ليست بلدا وإنما قارة بشعوب وثقافات ولغات عديدة. عدتُ من تلك الرحلة المشهودة التي طبعتني بطابع لا يمحي، بكنوز لا تقدّر بثمن: أساطير “الماريانا” و”البهاجفاد جيتا” وموسيقى “البهاراتا ناتيام” وأشعار رجل لم أسمع باسمه من قبلُ سمّاه غاندي منارة الهند وعرفه العالم منبهرا تحت اسم روبندرونات طاغور (1861-1941).

لم أكن أعرف آنذاك أن إعجابي بالرجل سيجعلني أضع كلمات له عنوانا لكتاب لي كلفني الكثير من المتاعب.

سنة 1985 صدر لي كتاب عن الوضع السياسي في تونس، والوطن العربي عموما، بعنوان “دع وطني يستيقظ”. تعرّض الكتاب بسرعة للمصادرة مع استدعائي لحاكم التحقيق، وبعدها دعيت للمثول أمام المحكمة بالتهمة المعهودة. بقيتُ أمثل أمام المحكمة كل ثلاثة أو أربعة أشهر وكل قاض يؤخر القضية إلى أن جاء الانقلاب سنة 1987 فحكّم أخيرا بعدم سماع الدعوى. الغريب في القصة أن لا أحد سألني لماذا عنوان الكتاب وأن لا أحد اعترض طريقي يوما ليقول لي “أنت أيضا من عشاق طاغور فأحضنه وأدعوه إلى عشاء لينشبع حديثا عن شاعر أثر كثيرا في حياتنا.

طبعاً كان عنوان الكتاب الممنوع مأخوذاً من آخر بيت للقصيد التي يقول فيها طاغور :

هناك حيث لا يلبس الفكر الخوف ويكون الرأس متطعاً إلى العلا
هناك حيث تكون المعرفة حرّة
هناك حيث لم يُجرأ العالم بين حواجز ضيّقة مشتركة
هناك حيث تنبثق الكلمات من أنوار الإخلاص
هناك حيث الجهد الذي لا ينضب ويبسط نراعيه نحو الكمال
هناك حيث لا يضل العقل النّير في الصحراء الموحشة للعادات البالية
هناك حيث يتقدم الفكر -الذي تفوده أنت- في المدى الرحيب من الفكر والعمل
أجل - في نعيم الحرية أبتاه -دع وطني يستيقظ"

ما الذي يميّز به طاغور والذي قد يكون وراء شهرته التي طبقت الآفاق بعيداً عن ولاية البنغال التي نشأ فيها والهند التي صار واحداً من أبرز رموزها؟

إنه شاعر الحب بامتياز ولو لم يكن لا الأول ولا الأخير .

حقاً كم من قصائد قيلت وسُئلت في أنبل وأجمل وأهم عاطفة عند الإنسان .

نموذجاً قول جميل في بثينة:

وكل محب لم يزد فوق جهده	وقد زدتها في الحب مني على الجهد
إذا ما دنت زنت اشتياقاً وإن نأت	جزعت لنأى الدار منها وللبعد
أبى القلب إلا حب بثينة لم يُرد	سواها وحب القلب بثينة لا يجدي
تعلق روحي روحها قبل خلقنا	ومن بعد ما كنا نطافاً وفي المهد
وما وجدت وجدي بها أم واحد	ولا وجد النهدي وجدي على هند
ولا وجد العذري عروة إذ قضى	كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي

على أن من قد مات صادف راحة
أفي الناس أمثالي أحبّ فحالهم
وهل هكذا يلقي المحبون مثل ما
وما لفؤادي من رواح ولا رشد
كحالي أم أحببت من بينهم وحدي
لقيت بها أم لم يجد أحد وجددي

ثمة أيضا حبّ المخلوق لخالقه. العلاج نموذجاً:

ما زلت أطفو في بحار الهوى
فتارة يرفعني موجهها
حتى إذا صيرني في الهوى
ناديت يا من لم أبح باسمه
تفيك نفسي السوء من حاكم
يرفعني الموج وأنحط
وتارة أهوى وأنغط
إلى مكان ماله شط
ولم أخنّه في الهوى قط
ما كان هذا بيننا شرط

كم من ميادين أخرى يشبّب فيها الشاعر بمصدر شعوره العارم، أكان حبّ
الطبيعة أو حبّ الوطن.

ما يميّز طاغور أنه شاعر الحبّ بكل أصنافه ومواضيعه ومستوياته.

هو لا يشدّ عن قاعدة حبّ الرجال للنساء لكنه لا يحبّ امرأة في حد ذاتها
كحبّ جميل لبثينة، أو عنتره لعبلة أو قيس لليلي، إنه يحبّ المرأة أيا كانت
الحالة التي تتخذها: الأم، الزوجة، البنت، أو الأخت. هو يحب المرأة في
إطلاقتها وفي خصوصيتها باعتبارها أجمل وأنبل حالات الإنسان. تأمل
قوله:

هي الرحي في فكر العقول تهفو.

هي الزهر في روض الغرام تنمو.

هي الطير في جو الهيام تطلو.

هي النجم في لثام الحب تبدو.

هي القمر في ظلام الليل تزهو.
هي الشمس في فضاء الكون تسمو.
هي السعادة في سماء الحب ترنو.
هي الروح في أجواء العواطف تجثو.
هي الجمال في معاني الحنان تشدو.
هي الفتنة في ألوان الجاذبية تغدو.
هي الحب في قضايا العشاق تشكو.
هي قبلات في ليالي الربيع تحلو"

هذا الحبّ جزء من فيض يسع البشرية جمعاء. يتوجه به إلى الإنسان بما هو واحد ليس هذا الزيّ أو ذلك، جاء من الشرق أو من الغرب، آمن بالله أم باسم آخر للقدّوس الذي يحفّ بنا كالهواء نعيش فيه وبه ولا نراه:

أنت الأري وغير الأري،
الهندوسي والمسلم
تعال أنت الإنجليزي
وأنت النصراني
تعال أيها البراهمي
نظف ذهنك
صافح كل الأيادي
تعال أنت أيها المتشرد.
انسوا كل الإهانات
لا تتوقفوا
تعالوا كلكم
إلى ضفاف الهند
حيث تلاقى البشر من كل الأعراف "

حتى لا ينقطع الحبل أبدا بين المحبين، يأمرك الشاعر:

"يا بُني، دعهم يرون وجهك،
ليترأى لهم معنى الأشياء كلها
دعهم يحبونك وبحبون بعضهم
تعال وخذ مقعدك في كنف اللامحدود
عند شروق الشمس افتح قلبك وارفعه كزهرة تتفتح
وعن غروب الشمس أحن رأسك في صمت، أكمل عبادتك
ودع عينيك اللطيفتين تسقطان عليهم
كسلام المساء الغفور، بعد انتهاء كفاح اليوم"

أما الذين فشلوا في المشروع الوحيد الذي نعيش كلنا من أجله، فالشاعر
يأمرك بكيفية التعامل معهم:

"أذهب وقف وسط قلوبهم"

وإن أتاك الشك في فعالية مثل هذا الأمر تذكر ما يلي:

ليس لك غير جناحيك، والسماء اللامتناهية
فعلام الخوف. وعلام الحزن.
حلق في الجو جاهدا.
رفرف في الفضاء ما استطعت.
عش طليقا حرا رغم الظلام، والرياح، والموت.
واياك، اياك يا عصفوري الصغير، أن تطوي جناحيك"

كل شيء في هذا العالم جدير بالحب، وحتى أكره ما يكرهه الناس:

"أبدأ رحلتي صفر اليدين
ولكن بقلب مفعم بالرجاء"

فأنا على يقين أنني سأحب الموت
كما أحببت الحياة"

إذا داهمتك رائحة الكره وأنت تفتح صفحات التواصل الاجتماعي
وإذا أذت أذنيك صرخات البغضاء المتصاعدة من التلفزيون
وإذا أزكمت أنفك رائحة الحقد التي تفوح من الذوات المنورمة المستعدة
لحرق الأخضر واليابس دفاعا عن مصالحها الضيقة:
تذكر أن هناك بشرا مثل طاغور، وأنه عينة من ذوات داخلها "الحب يلمع
كلؤلؤة في ظلام القلب البشري".

لمن نقرأ عندما نقرأ لعمر الخيام؟

عمر الخيام (1084-1131) هو أيضا شاعر، نام ملء جفونه عن شواردها، وبقي الناس جراء ما قال وما قول، يسهرون ويختصمون.

شاعر شغلت رباعياته الأجيال.

كم أتعبَ من مفسرين لا يتفقون على رأي، وهل الرجل الذي توجه لله عزّ وجلّ بهذه الأبيات ملحد أم متصوف!

"دعني إلى الآثام حتى أرى
كيف يذوب الإثم في رحمتك"

كم حيرَ من مؤرخين ونقاد!

فلا شيء ثابت بخصوص معلقاته التي شغلت العالم.

كم عددها؟ 800؟ 100؟

كيف التثبت مما بين أيدينا خاصة وأن الأشعار بدأ تجميعها 300 سنة بعد موت الشاعر؟ كيف صمد تراثه والحال أن حروبا وويلات لا تحصى ولا تعدّ مرت على مدينته نيسابور؟ من يضمن لنا أن أهمه لم يدمر بأمر من السلطات الدينية والرجل كان شوكة في حلقها حيا وميتا؟ كيف نتق في أن الذي نقرأ من تراثه ليس لمزيفين بارعين؟

هكذا تقف أمام ديوانه كمن يقف في متحف متسائلا هل اللوحات المعروضة أمامك حقيقية أو لمقلدين بارعين؟

شعور صاحبَ دوما كل المحبين للرجل وكل كارهيه. منهم من طالب بشطب اسمه من الأدب الفارسي ونسيان الرباعيات مدعيا أنها قد تكون أكبر خدعة في تاريخ الأدب العالمي.

إشكالية عامة طرحت أيضا في تاريخ أدبنا.

سنة 1926 أصدر طه حسين كتابا عن الشعر الجاهلي متسائلا: لمن نقرأ عندما نقرأ للشنفرى وطرفة بن العبد وامرئ القيس؟

أليست الجاهلية فترة زمنية طويلة تعابشت وتقاتلت فيها قبائل عربية ذات لهجات مختلفة، وأحيانا بعيدة عن بعضها البعض؟ فكيف ننسب لها كل هذا الشعر الموصوف بالجاهلي وهو مكتوب بلغة نموذج وكأنها لقبيلة واحدة؟

صودر الكتاب والسؤال إلى اليوم ينتظر جوابا.

نفس الإشكالية نعترضها ولو بصيغ أخرى في الآداب الأوروبية.

هل موليير Molière هو مؤلف مسرحياته الهزلية الشهيرة حقًا وليس كورناي Corneille كاتب التراجيديات الفخمة؟ إنه شكّ داهم نقادا انتبهوا لتشابه الكتابتين إلى درجة لا يمكن تفسيرها بالصدفة.

في إنجلترا لغط دوري حول شكسبير وهل هو من كتب رواعه أم كتبها أرسطوقراطي اسمه وليام ستانلي. من الحجج أن مسرحيات شكسبير الإيطالية، تصف بمنتهى الدقة أماكن ما زالت موجودة؛ مما يعني أن المؤلف زار إيطاليا بينما من الثابت أن شكسبير لم يغادر إنجلترا أبدا.

مؤكد أن هناك أمثلة عديدة في كل الثقافات. فالانتحال والتزييف في الفضاء الرمزي الخيالي مثل السرقة والتحايل في الفضاء الحسي، أمر عادي وما علينا إلا أن نذكر ما عاناه الفقهاء على مرّ العصور لفرز الصالح من الطالح في الأحاديث النبوية.

إشكالية أخرى لا تقلّ إزعاجاً: ترجمة هذا الشاعر... ومن ورائها إشكالية أضخم: قدرة الترجمة على ترجمة الشعر.

أن تنقل معلومة عن موعد إقلاع طائرة الخطوط الفلانية في الساعة كذا من باب الخروج رقم كذا، من لغة لأخرى أمر هين إذ تتطابق الكلمات مع بعضها البعض تطابق اليد اليمنى مع اليد اليسرى.

لكن أن تنقل الشنفرى للفرنسية وبودلير Baudelaire للعربية!!

إن أهم إضافة للشعر بالنسبة للكلام العادي مرتبطة بموسيقى وإيقاع الكلمات في لغة بعينها والأمر لا ينقل آلياً بالترجمة الحرفية إذ لكل لغة إيقاعها وموسيقاها. ثمة في مستوى الفحوى الإيحاءات التي يفهمها السامع من شاعر يحدثه بلغته نتيجة اشتراكهما في نفس المخزون الثقافي وتضيق على من يقرأ الشعر مترجماً.

من الصعب إذن صبّ معاني وصور وجمالية لغة في قالب لغة أخرى قد تكون في مرحلة متباينة من بحثها عن الكمال أو قد تكون اتخذت طرقاً مختلفة بحثاً عنه.

نزيف متفاوت إذن من الجمالية والمعنى تركبه أحسن ترجمة وتعوّضه بما تستطيع من حسن وسوء التدبير اللغوي... ومن حسن وسوء النية التي قد تصل حدّ التزييف.

بالنسبة لنا نحن العرب، أهمّ مصدر لمعرفتنا بالخيام ترجمة الشاعر المصري أحمد رامي (1892-1981) التي صدرت سنة 1924 ومما زاد في شهرتها أن أم كلثوم غنت بعض رباعياتها لتصبح مألوفة في أوساط عريضة من الناس.

ثمة مصدر ثان هو الترجمة الإنجليزية للشاعر البريطاني أدوارد فيتزجيرالد (1809-1883) والتي نشرها سنة 1859 وقد ساهمت كثيرا في انتشار الرباعيات في الثقافة الغربية.

بمقارنة القراءتين تكتشف اختلافات كبيرة في الترجمة وخصوصا أن هناك نصوصا غائبة عند هذا أو ذاك.

مثلا: الموت حاضر بقوة في شعر الخيام. من بين الرباعيات الكثيرة التي ترجمها رامي قوله:

سأنتحي الموت حثيث الورود

وينمحي اسمي من سجل الوجود

هات اسقنيها يا من خاطري

فغاية الأيام طول الهجود

لكنك لن تجد عنده ترجمة هذه الرباعية المضمنة في ديوان فيتزجيرالد:

Oh threats of hell

*And hopes of paradise
One thing at least is
certain –this life flies
One thing is certain
And the rest is lies
The flower that once
Has blown forever dies*

(وترجمتها "على الطائر" : آه يا تهديدات بالجحيم وبإغراءات بالفردوس -
شيء واحد على الأقل مؤكد- أن هذه الحياة تنتهي والباقي أكاذيب- وأن
الزهرة التي تفتحت يوماً إلى الأبد تموت)

عندما نقرأ الأبيات الإنجليزية، هناك وزن وموسيقى اللغة الإنجليزية ولا
يمكن أن تكون الترجمة الحرفية للفارسية التي لها موسيقاها الخاصة. مما
يعني أنك تقرأ أيضاً وربما خصوصاً للشاعر البريطاني.

إنها نفس الملاحظة بخصوص أحمد رامي. ففي ترجمته لي بالضرورة
لعنق الكلمات لكي تدخل في قالب نسق اللغة العربية وموسيقاها.

يطرح هنا موضوع دور المترجم وهل هو فعلاً مترجم أم شريك فرض
نفسه على المالك الأصلي.

بلغة الضاد نحن نقرأ في الواقع "رباعيات الخيام-رامي"، الذي اختار ما
يترجم وربما أسقط ما لم يعجبه أو ما استصعبه، وبالإنجليزية نقرأ

"رباعيات الخيام-فيتزجرالد"، الذي اختار ما يترجم وربما أسقط ما لم يعجبه أو ما استصعبه.¹⁶

لقائل إن يقول: الحلّ في تعلم الفارسية وفي العودة للنصوص الأصلية. إضافة لاستحالة تعلم لغة كل شعر تُعجب به، وضرورة الثقة النسبية في المترجمين، فإن النصوص الفارسية هي أسّ المشكلة بما أن هناك تضاربا بخصوص عددها ومصدرها وصدقيتها.

ما العمل إذن؟

نحن نحبّ هذه القصائد - أكنّا من الشرق أو من الغرب -للوصف الدقيق الرائع لكائن تنماهى معه من أول قراءة لأنه الإنسان المؤمن- الملحد، العاصي- المتعبد، اليأس-الآمل، الشهواني-الزاهد، المتمرد-الصابر... إنسان كل زمان ومكان.

أي أهمية لكون النصوص التي بين يدينا أصلية أم مزوّرة، يكفينا ما فيها من حكمة وجمال وعكس صحيح لما يتلاطم داخلنا من تناقضات تشكل النواة الصلبة لطبيعتنا البشرية. إذن تحية لعمّر الخيام أيّ كان... أيّا كانوا...

16 - ثمة في تاريخ الموسيقى قصة مماثلة. سنة 1874 أَلّف الموسيقار الروسي مزجورسكي Mousgorsky قطعة سماها "لوحات المعرض" يتخيل فيها مشاعر زائر متحف يتوقف أمام هذه اللوحة وتلك. هو ألّفها للبيانو فقط، لكن سنة 1922 أعاد الموسيقار الفرنسي رافال Ravel كتابتها للأوركسترا وهذه الصيغة السمفونية أكثر شهرة من كتابتها الأصلية للبيانو وحده وتُعزى دوما للغان الروسي وأغلب الناس يجهلون أنهم يستمعون في الواقع لموسيقى من تأليف رافال مزجورسكي.

https://www.youtube.com/watch?v=J53xU1M_sSw

حافظ، الأثم الذاهب إلى الجنة

قد لا يوجد شاعر نال من الإعجاب ما ناله حافظ الشيرازي (1347-1414) داخل وطنه وخارجه. كتب فيه غوته الكثير من المدح وكذلك نيتشه. ذهب أحد أكبر الأدباء الأمريكيين، رالف والدو إيمرسون، إلى القول إن حافظ: "هو الرجل الوحيد الذي تمنيتُ أن أراه أو أكونه".

لم يصل المتنبي عند العرب، أو بوشكين عند الروس درجة التقديس التي وصلها هذا الشاعر عند الإيرانيين، والفرس منهم على وجه التحديد، فديوانه في كل بيت تُقرأ أبيات منه في كل مناسبة ويُتبرك به كما لو كان كتاباً مقدّساً. أصبح قبره مزاراً تبارى الحكام في تزيينه على مرّ العصور ليصبح معلماً يعرف بـ "الحافظية"، يحج إليه كل عشاق الشعر وكل محبي هذا الشاعر.

من الصعب إحصاء الطبقات والترجمات لديوانه عالمياً. لم يترجم للغة الضاد إلا سنة 1878. وكانت أول دراسة وترجمة جدية له هي للمصري إبراهيم أديب قدّمها طه حسين سنة 1944¹⁷ ونقلت عنها الاستشهادات.

ما الذي أعطى كل هذا الصيت لرجل كان خبازاً، عاش على التدريس وفي شبه خصاصة، حياة يمنعه من الشكوى؟

اتهم في دينه وإيمانه من قبل شيوخ مترمتمين مثل عمر الخيام، وابن عربي، والحلاج. ذهب البعض منهم إلى حدّ تحريم المشي في جنازته. هل أراد استفزازهم بهذين البيتين؟

17 - <http://www.sufi.ir/books/download/arabic/hafez-ar.pdf>

"لا تؤخر قدمك أو تتردد عن جناية حافظ
فهو غارق في الإثم ذاهب إلى الجنة!"

ذاهب إلى الجنة رغم اعترافه بأنه غارق في الإثم؟ نعم لكن عن أي إثم
نتحدث؟

لا شك أننا هنا أمام صدى قصيدة لعمر الخيام، سلفه الشهير وشبيهه في
الأقوال والمواقف.

يا مدعي الزهد أنا أكرم
منك وعقلي ثمل أحكم
تستنزف دم الخلق وما استنزف
إلا دم الكرم، فمن آثم؟"

الثابت عندنا أنه من كان من مستنزفي دم الكرم، أليس هو القائل في
الخمير؟

"ويا ساقى ألا أقبل وتاولني ولا تمهل دهاقا لونها ورد كضوء الحداد إذ يسطع
وكأس الخمر هل أحسو على سرّ بلا جهر ويا بؤسا إذا أوردت بنا نار الريا أجمع"

أليس هو الشاعر الذي رفع فنّ الغزل إلى أعلى مصاف الشعر في غموض
متعمد، إذ لا تدري هل هو يشبب بإله أو ببشر، وأحيانا هل الحبيب الذي
يتغنى به ذكر أم أنثى؟

بسود الهدب حدثني طعنت بغمزها ديني تعال الآن خلصني فسحر العين يشقيني
قرين القلب لا كانت مواتية ودانية سويغات أرى نفسي وشوق لا يواتيني
ومجد العالم باقي فداء الخل والساقى وملك العالمين فدى لعشق كاد يضيئني"

من أين إذن للشاعر كل هذه الثقة في ذهابه للجنة، رغم جهره بالمعاصي
يضاف إليه التعريض بالموظفين عند الله؟

"إن قلبي أصبح متعباً من الصومعة وخرقة النسك، أين؟
فأين دير المجوس وأين الشراب المصفى، أين؟
وأى علاقة بين الخلاعة، وبين الصلاح والتقوى، أين؟
أين سماع الوعظ من نغم الرباب؟"

حافظ ككلّ الذين صفت قلوبهم وتظهرت نفوسهم يرى وراء ستار الطقوس:

"وماذا يدرك الأعداء من وجه الحبيب المضيء
وأين المصباح المنطفئ الخابي، من شعة الشمس الوهاجة... أين؟"

قد يكون اقتناع حافظ بأن الله غير ما يظنه الوعاظ وحتى مما يتصوره
النساک هو الذي جعله واثقاً من ذهابه للجنة، وقد تعرّف ولو لفترات التجلي
الخاطفة على "وجه الحبيب المضيء".

يتطلب الذهاب للجنة المرور من نقطة استراتيجية هي المقبرة. لننظر إلى
الأبيات التي تزين قبره، فهي لم تُختر صدفة:

"أين بشرى وصالك حتى أهبّ من رقادى للقاتك .
فأنا طائر القدس أقلت من شباك الدنيا على ندائك
وبحبي لك لو أنك دعوتني الخادم الأمين
لصحوت وأنا سيد الأكوان على دعائك
فيا رب أدركني بغيث من سحب الهداية
قبلما أهب حفنة من التراب محرومة من آلائك

وأجلس على تربتي ومعك المطرب والشراب
حتى أهبّ من لحدي طمعا فيك راقصا على نغماتك
ثم قم أيها الصنم الجميل وأرني قدك وخفة حركاتك
فإني عند ذلك أهبّ راغبا في الحياة مصفقا لبهائك
فإن كنت عجوزا فضمني إلى صدرك وضيق عليّ العناق
فإني في وقت السحر أهبّ غضّ الإهاب من ضماتك
ثم امنحني مهلة أراك فيها يوم الممات والرحيل
فقد أستطيع كحافظ أن أهبّ للحياة راغبا في لقائك."

كيف يفهم القراء هذه القصيدة التي تناولتها من أكثر من جانب فحيرتني
كثرة ألغازها وتأويلاتها الممكنة.

نحن إذن أمام ميّت مستعدّ للوثوب من قبره شريطة أن يكون من يدعوه
للحياة مجددا هو الحب لا غير، مما يعني أن الحبّ سبب كل رغبة في
البقاء والحافظ الوحيد للبعث.

لكن حافظ يقول في قصيدة أخرى:

"سيعود يوسف الضالّ ثانية إلى كنعان فلا تحزن
وستصبح صومعة الأحران في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن !
وإذا ضربتّ بأقدامك في الصحراء شوقا إلى الكعبة
فلا تضجر إذا غلظت عليك أشواك المغيلان ولا تحزن !
والمنزّل مليء بالخطر والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق لها نهاية فلا تضجر ولا تحزن !"

ألا يحق لنا أن نفهم أن حافظ كان يعاني من الضجر والاستياء، أن عالمه كان صومعة أحزان، وأن طريقه إلى الكعبة السماوية كان مليئاً بالأشواك؟ أليس بديهياً أنه كان يعاني من إدراكه أن "المقصود بعيد غير منتظر" لكنه كان مع ذلك يصبرّ النفس إذ "كل طريق له نهاية"، وكل إنسان ضائع في الوجود-"سيعود ثانية إلى كنعان"؛ أي إلى بيت أبيه الذي في السماوات كما يقول أتباع المسيح؟

كأنني به هنا غير معني بمواصلة محنة الحياة ولو بكل ما توفره من "مطرب وشراب" و"ضمانات غضّ الإهاب". المهمّ نهاية التيه.

ليس من الغريب إذن أن يندافع الناس على قبر شاعر عبّر عن التناقض الأول الذي تولدت عنه كل تناقضاتهم: رغبة في الحياة تسكنها الرهبة... رهبة من الموت وداخلها شوق غامض إليه.

لمّا رمى الهايكو جسرا بين تونس واليابان

في شهر يونية 2013 دُعيت لحضور القمة اليابانية الإفريقية في مدينة يوكوهاما القريبة من طوكيو. سافرت محملا بهمّ وآمال ملفات تعاون حيوية بالنسبة لتونس. على هامش القمة انتظمت جلسة عمل مع رئيس الحكومة السيد آبي الذي قال كلاما جميلا عن تونس وأجاز كل المشاريع.

قلت في نفسي عند نهاية الاجتماع إنه ليوم أعرّ. لاختتام اليوم الأغرّ هذا كانت بانتظاري سهرة رائعة لم تكن في الحسبان.

كنت أعرف من البرنامج الرسمي أنه ستنظّم سهرة ثقافية. اكتشفت أنها خاصة بي ولقاء شعراء الهايكو.

تذكرت آنذاك أنني لمّا ودّعت سفير اليابان الذي جاءني بالدعوة للقمة، قلت له مازحا: كل الناس معجبة بالصناعة اليابانية وتنسى أروع صادراته للعالم، شعر الهايكو وأنا واحد من المدمنين عليه.

ابتسم الرجل ولم يقل شيئا لكن فعل ما لم أطلب ولهذا سألني مدينا له طول الحياة بتلك السهرة الرائعة التي انتظمت في مطعم صغير بالقرب من برج طوكيو، مع مجموعة صغيرة من الكتاب والشعراء.

دار الحديث بالطبع عن الثقافتين وعن الشعر والأدب. أذكر نظرات الاستغراب في العيون وأنا أحدثهم عن كوابيشي إيسا شاعري المفضل، وكيف أن كتابي "الرحلة" ملآن به إلى درجة أنه أصبح واحدا من شخصيات الرواية.

في نهاية سهرة بالغة اللطف وزاخرة بالعطاء المتبادل، تقدمت إليّ سيدة
قائلة: اسمي ميازومي مادوكا ، عشت فترة في فرنسا وترجمت اشعاري
بالفرنسية وأودّ إهداءك هذا الديوان.¹⁸

سألته هل زارت تونس. قالت لا، لكنني أحلم بقضاء ليلة في الصحراء
تحت النجوم. قلت لها عندنا أفضل صحراء ونجومنا كلها خمسة نجوم ولا
يوجد ليل أجمل من ليلنا ولا صمت أبلغ من صمت صحرائنا. ثم هناك
مهرجان في مدينتي دوز، خلال شهر ديسمبر المقبل، فلماذا لا تغتيمي
الفرصة لزيارتنا وسننظم لك رحلة داخل الصحراء لتتمتعي بليلة قدسية لا
تموتين فيها من البرد ولزيادة الخير ستكون فرصة للشعراء التونسيين
للتعرف على شعرك وعلى شعر الهايكو المجهول تماما عندنا.

رحبت هي بالفكرة وسهرت أنا على إنجازها. هكذا جاءت السيدة مادوكا
لدوز في ديسمبر 2013 مرتدية الكيمونو، ترافقها المسؤولة عن البرامج
الثقافية في القصر.

حسب الوعد قضت ليلتها تحت النجوم. لبست البرنس. أقامت أمسية شعرية
في توزر وجلست معي في افتتاحية المهرجان، تراقب منبهة لوحات حية
لملحمة الإنسان في عيشه وصراعه مع أجمل وأصعب بيئة على سطح
الأرض.

18 - Mayuzumi Madoka: Haikus du temps présent – Editions Philippe Picquier -2010

غادرتنا المرأة اللطيفة مشبعة بمناظر أعتقد أنها لن تنساها. وقلت في نفسي، تُرى أي هايكو سنكتب عن رحلتها التونسية وعن ليلتها تحت نجوم الصحراء؟

جاءتني منها سريعا رسالة شكر رقيقة ثم نسيت القصة والمرأة، في خضمّ المشاكل التي لا تبخل علينا بها الحياة.

بعد ثلاث سنوات عدت لمهرجان دوز مواطننا من بين المواطنين ولأول وهلة شدّ انتباهي وجود الأعلام اليابانية ترفرف في السماء من بين أعلام الدول المشاركة، وهي عادةً دول عربية شقيقة لها تاريخنا المشترك مع أمة الإبل وشعوب الخيل وقبائل كلاب السلوكي.

قلت لمرافقيّ مازحا، لم أكن أعرف إلى اليوم أن هناك في اليابان صحراء. كم أنا متشوق لأرى إبلهم. هل تظنون أنهم سيغلبون إبلنا في السباق؟ لم يكن هناك لا ناقة من طوكيو ولا جمل من كيوطو وإنما وفد من سيدات يرتدين الكيمونو، قد يكون بينهن شاعرات على موعد مع نجوم الصحراء، جنن بعد أن قامت السيدة مادوكا بالإشهار لتونس.

هكذا رمى شعر الهايكو جسرا إضافيا بين بلدين وشعبين وثقافتين فرّق بينهما اتساع المكان والزمان.

حقا، لا شيء أكثر خصوصية من هذا الشعر نتيجة ارتباطه الوثيق بثقافة اليابانيين لكن القاعدة في هذا العالم أن الخصوصية إذا لامست أعماق ما في الإنسان والقاسم المشترك بين البشر، تصبح جزءا من العالمية فيسارعون في كل مكان لتبنيها وقد تعرفوا على كونها تعبر أيضا عنهم مثلما تعبر عن

أصحابها. هكذا انتشر هذا النوع من الشعر باكرا في الغرب ثم في كل الثقافات الكبرى وقلده كم من مقلد في كم من بلد بنجاح متفاوت. متى وصل ثقافتنا؟ لا أدري بالضبط¹⁹. بحثت كثيرا عن شعراء عرب ينظمون الهايكو وجدت منهم السوريين محمد عضيمة وإيناس أصفري وغدير حنا وعلي ديوب وغيرهم، ومن العراق جهاد مطر.

لِقَهْم طبيعته لا أحسن من المقارنة مع ما تعودنا عليه من شعر.

انظر هذه القصيدة لشاعر سوري شاب واعد هو مصطفى قاسم عباس:

"تمضي الحياة... وما تقضى أمانينا
وأسهم الحزن ترمينا فتشجنينا
سماء آلامنا في الدهر ثمطرنا
بوابل ممتف يدي مآقينا
فلوعة الوجد أشجان كابدنا
ولا أنيس لنا في الضنك يُسلينا
وشجوا أعماقنا نار بأضلعنا
تحيل ذا القلب جمرا والشرابيننا
كم امتطينا دموع البؤس أجنحة
تطير ولهى لأفلاك تناجينا
تسيل مزن الجوى كالغيث هاطلة
لكن بثهطالها جفت روابينا
سراب أمطارها لم يرو غلطنا
بل أنبتت سدر أشواك بوادينا

19 - الهايكو-مايين-التقاليد-اليابانية-سوا "الهايكو". ما بين التقاليد اليابانية والبصمة العربية - بقلم: بكر السبائين

تنمو غراسُ الأسي حُمْراً ولا عجبٌ
فمن ويريد لنا تسقى فثسقىنا
نهأرنا، ما له يمضي كطيف كرى؟
وليأنا بالشقا دوماً يُعشينا
وحالنا أدمع في الخدِ مُحرقه
أما القلوبُ فقد فاضت براكينا
بيكي لحالتنا نجم يُساهرنا
وكم مسحنا له دمعاً بأيدينا
جُفوننا لم تلتق يوماً ولا وسنا
علام بالسهر الأقدارُ ثرمينا؟
سينوننا تنقضي تكلى على عجل
وكرُّ أيامنا للموت يُديننا
فأن أن تحمل الأحلام هودجنا
ونركب الشعرَ كي ننسى مآسينا
عسى الخيالُ الذي يسري بخاطرنا
لما نعانیه من هم يُنسينا
يا بدرَ تمّ المساء، روح لنا تلتقت
فقل لشاعرِكَ الصّداح يرثينا
مدادُ أسفاننا ينسابُ من دمننا
وكلُّ حرفٍ بها يُبكي المَلابينا
آهٍ لدهرٍ مضى حُلوا بلا كثر
تظل ذكراهُ بعد الموت تحيينا
إن زارنا طيفه في الحلم تحسبهُ
شهداء، فترشّف للإشراق ماضينا
كنا نعيشُ به والثغرُ مبتسمٌ
وما أحيى مع التجوى ليلينا

لا الدمع يُغرِقنا، لا الهم يُقلِّقنا
لا الهجر يُقلِّبنا، لا الشوق يُضنِّبنا
وكانَ حبْلُ الهوى بالوصل مُتصلاً
وقد حوى روضهُ ورداً ونسرينا
نُسقى زلالَ الهنا، عذباً مواردهُ
وأتهُرُ الحبَّ بالثحنانِ ثروينا
حتى وردنا أجاجَ البينِ ذا غصص
ولم نجد في بحار الحزن شاطيننا
ما عاد نجمُ السها للصبح يُؤنسنا
وأينَ من كان في الشكوى يُواسينا؟
وما لريح الصبا تجتازُ ساحتنا
ولا سلامٌ من الأحبابِ يأتينا؟!
كانت تُبلِّغنا عن حالهم خبراً
لكن نُحمِّلها أخبارَ واشيننا
وأدمعاً كم هممت شوقاً لرؤيتهم!
وخافقاً هام فيهم من تلاقينا
ما للخمائل تبكيها حمائمها
ووهجَ حرِّ البكا يُذكي الرِّياحيننا
هل ودَّعت - يا ترى - إلفاً تذوب بهِ
أم أنها فوق غصن البان تبكيننا؟
وما لأجفاننا تهمي بلا سببِ
أهكذا دائماً حالُ المحبيننا؟
هذا هو العمرُ، والثنيا مؤلِّية
يَمضي وَيَقْنى بحينِ يَبْبَعُ الحيننا
إذا تأملتَ في الثنيا فأنت ترى
أنَّ السعيدَ الذي ما ضيَّعَ الدِّيننا

لا ريبَ أن الثنى ظلَّ يزول إذا
ما ضمَّنا للحدِّ... والأهواءُ تُغرينا
حقاً سيأتي لنا يوماً نصيرُ به
في جوفِ رمس نرى من حولنا الطينا
فاحفظ لنا ربَّنَا- نفساً تُساعدُنَا
على الفضائل والإحسان... آمينا"

والآن انظر قصيدة باشو واضع أسس شعر الهايكو لتدرك أولى خصائصه:

"متيم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر
سأرى مثل هذه الأزهار؟"

قصائدنا أبيات وأبيات تصيبك أحياناً بالتخمة من طولها ومن الاستعمال المفرط للمدفعية الثقيلة من الكلمات والتشبيه والصور والاستطرادات. شعر الهايكو ثلاثة أبيات لا أكثر وكأنّ اليابانيين هم من قالوا "البلاغة الإيجاز" دينه ودينه الاقتصاد في الكلمات والمشاعر وكل البراعة الإيحاء. أبطال الهايكو عامة الناس، أضف إليهم الكائنات الحيّة، خاصة أصغرهما، تلك التي لا ننتبه إليها أبداً.

عندنا الفخر، الهجاء، المديح، الغزل، الشكوى، البكاء (على الأطلال وعلى الحبيبة)، الصراخ (ضد الدكتاتورية، ضدّ القدر الخ). على العكس لا يهتمّ الهايكو إلا بأبسط الأحداث مثل صرصار يغني لا يعرف أنها نهايته، أو راهب فوجئ وهو يقضي حاجته البشرية، أو امرأة تنشر الغسيل أو حركة فراشة أو زقزقة عصفور أو صوت ارتطام ضفدعة بالماء.

لم تدخل الطبيعة شعرنا إلا باعتبارها إطارا عاما وبصفة عابرة. في الهايكو هي نقطة ارتكاز كل قصيدة.

شعرنا فياض بالمشاعر الجياشة وعابس، إلا فيما قل وندر... الهايكو جد مقتصد في التعبير عن المشاعر وفيه دوما رائحة فكاهة وملامح ربع ابتسامة عابرة.

تخللوا طيف الشعر أسلوبا وفحوى، بأكبر اللغات البشرية، ستجدون الشعر العربي في طرف والهايكو في الطرف النقيض. لا أقول بالطبع إن شعر الهايكو أحسن من شعرنا أو العكس، لكن أن الشاعرية عند الإنسان اتخذت طرقا ووسائل وأساليب مختلفة، نمثل نحن نمودجا منها ويمثل الشعر الياباني -وبالأخص نوعه المُسمّى الهايكو- نمودجا معاكسا. وتبقى الخيارات مسألة ذائقة تختلف من شعب لشعب، ومن شخص لآخر وصدق من قال وللناس في ما يعشقون مذاهب.

عمالقة الهايكو الثلاثة

باشو، أقدمهم (1644-1694). هو ابن ساموراي وراهب اعتكف آخر حياته. يعتبر الأب المؤسس واضع القواعد التي سار عليها كل شعراء الهايكو، والمعلم الذي اتبع الجميع خطاه.

أما إيسا (1763-1828) فهو رجل من عامة الشعب، طردته زوجة أبيه صغيرا وعاش متشردا زمتا طويلا ونال من محن الحياة الكثير.

ختاما شيكي (1867-1902) الصحفي والناقد والمجدد ويقال إنه كتب 25000 قصيدة من الهايكو.

لا شيء يجمع بين العمالقة الثلاث ومع ذلك كأن كل واحد منهم، رغم تميزه وطرافته، صدّى لما يعتلج في فكر الآخر؛ ربما لأنهم فعلا صدى لروح واحدة. نعم، كأنّ ثلاثتهم في حوار ألغى الزمان والمكان يتتاولون من مختلف الجوانب اتفاقا كاملا بخصوص هذا العالم الذي تبلورنا فيه.

أبلغ من لخص الموقف باشو:

"في مواجهة البرق

ما أروع

الإنسان الذي لا يعرف"

الإنسان الرائع هو إذن ينظر للبرق لا يبحث له عن تفسير علمي، لا يتساءل أي رسائل تبعثها عبره الآلهة، لا يلتقط له صورا محمومة كما يفعل من يسمونهم في أمريكا، صيادي العواصف. هو غير معني إلا بتأمله والانخراط في حينية التجربة وقد التحم الكائن بالكون أخيرا.

انظر الآن التهكم اللطيف عند إيسا تجاه من يتعاملون مع هذا العالم لا باعتبارهم تجربة تُعاش، وإنما لغزاً للفتك أو أداة للسيطرة والتطويع:

"كم عمر القمر؟

ثلاث عشرة سنة

تقريباً"

أليس كل ما نقوله عن العالم "تقريباً" من نوع التقرير بأن عمر القمر ثلاثة عشر عاماً؟

نظرة الشاعر لمظاهر العالم فارغة من كل سؤال عن الكيف والكم والأسباب و النوايا، لكنها زاهرة بمشاعر بالغة الرهافة يتمازج فيها التعجب والإعجاب والتعاطف مع نكهة من المزج الخفيف التي نادراً ما تغيب.

استمع لإيسا يشجع الحلزون المقدم على غزو القمم الشاهقة.

"رويداً رويداً

تسلق جبل الفوجي

أيها الحلزون"

ينظر إيسا للفراشة النائمة فيهمس لها:

"استيقظي، استيقظي

لتكوني رفيقتي

أيها الفراشة النائمة"

هل هي نفس الفراشة التي يتأملها شيكي متسائلاً:

"تنامين على الصخر

تري هل تحلمين بي

أنا المسكين"

يفاجأ باشو بالمطر وبالقرد المبتلّ به مثله:

"إنه أول غيث"

والقرد أيضا يحلم

بمعطف صغير"

هل هو نفس القرد الذي سيتعاطف شيكي مع حيرته لأنه يعرف ما تفعله
الحيرة بالأرواح.

"الليل وطوله والقرد

يرنو إلى السماء حائرا

كيف الإمساك بالقمر؟"

إنها نفس نظرة التعاطف يلقيها إيسا على بشر يتضح كم هم متشابهون.

"تحت أزهار الكرز

لا نرى

بيننا غريب"

ما يهمّ شيكي إذن ليس إماطة اللثام عن غرابة العالم، وإنما الالتحام بكل
مظاهره وبكل كائناته. ما يهمّه منه خاصيته الأولى والأخيرة، التي تفجّر
فيه القريحة الشعرية للاحتفاء والتعني:

"نعم، ثمة شيء محبب

في هذا العالم

الذي جنّاه للموت"

حقا هذا عالم جنّاه للموت لأن الموت مرحلة الحياة الأخيرة لا نقيضها
وبالتالي نحن جنّاه أساسا لمعرفة تجربة أن يكون الكائن حيا. هذا ما فهمه

إيسا لذلك لا همّ له غير التفتح على القوة الغريبة التي تجعلنا نعيش هذه
الحالة الاستثنائية في كون جله جماد لا يشعر:

"هذا الربيع

حتى ظلي

مفعم حيوية"

ثبات الشيء من المحال والعالم حركة لا تتوقف وحالات تتابع، ومن ثم لا
وجود لربيع أزلي. يفتعل باشو الغضب من أمر هو أول من يدرك
ضرورته

"هذا الخريف أيضا!

لماذا عليّ أن أهرم؟

عصفور وسط السحاب"

يختار إيسا على عادته المزح مع نفسه، يعابث العالم الذي يعابثه:

"طول الليل

والضفادع ترّد لي

هرمت، هرمت"

يتساءل شيكي غير منصت إلا للقلق المتصاعد من أعماق ذاته والسلّ
ينهش رئتيه:

"ما أقصر هذا الليل

ترى كم بقي

لي من ليالٍ؟"

كأنّي بإيسا ينتهّد ردّا عليه

"ولأنه لا بدّ من الأمر

فانتمرن على الموت"

نعم ولا بأس أيضا أن نتمرن على الحياة... تلك التي يزيح عنها الهايكو الستار... حياة نضعها تحت راية البساطة والتأمل والهدوء... حياة دون الصراخ الهستيري بالبغض وبالحب الذي يملأ دواويننا.

هل قرأت لهولدرلين؟

ثمّة أشخاص يلعبون في حياة الإنسان دورا يجعلك تتساءل أيّ مسار كنت ستأخذ في هذه الحياة لو لم يعترضوا طريقك. كان البروفيسور مارك كلاين (1905-1975) من هؤلاء الذين شاء حسن طالعي أن أجدهم في أهم مفترقات طرق حياتي.

أشرف على أطروحتي وناقشتها أمامه سنة 1974، لكنني بقيت أتردد على مكتبه وكان بي حدسا أن أستاذي الجليل على وشك الرحيل وأن عليّ أن أعتنم كل فرصة لأتسبّع بعلمه وحكمته قبل فوات الأوان. كان يستقبلني دوما بمودة، ولا حديث إلا عن الكتب والكتّاب وفيما قلّ وندر عن الطبّ والأطباء. ذات يوم -ولم أكن لأعرف أنه الأخير الذي سأراه فيه- سألني

وهو يودعني عند الباب: هل قرأت لهولدرلين Hölderlin ؟

تلعثمتُ. أردت أن أناور: يبدو أن هايدجر كان من أشدّ المعجبين به.

لم أكن قد قرأت لا لهايدجر ولا لهولدرلين، كل ما في الأمر أنني تذكرت مقالا في الملحق الثقافي لجريدة لوموند عن الفيلسوف الألماني المثير للجدل (لاتهامه بالنازية) واعجابه الشديد بهذا الشاعر. لا أظن أن مثل هذه

الحيلة انطلت على رجل بذكاء مارك كلاين، أو أنه انتبه أصلاً لتخلصي
البائس.

ما اتذكره -وكانّ الحادثة وقعت البارحة -أن الرجل قبل أن يصفحني
مودّعا، رفع أصبعه في وجهي بأمر صارم: يجب أن تقرأ لهولدرلين.

نعم يا أستاذي الجليل، له ولكم من ألف شاعر آخر، لكن كم يجب أن
يمنحني الله من أعمار؟ الأمل الوحيد الجنة وأن تكون مكتبة تمتدّ إلى الأفق
وفيهما كل ما فاتني وسيفوتني من آداب البشرية وسكان المجرّات الشقيقة
والصديقة.

مرت السنوات وأنا لا أتذكر أستاذي إلا وتذكّرت وصيته "اقرأ لهولدرلين"
فتشغلني الحياة والمعارك اليومية التي لا تتوقف لحظة عن الأمر. تشاء
الصدفة إبان سنوات النفي وأنا أتجول بين الرفوف في إحدى مكتبات
باريس أن يستوقفني عنوان كتاب Hyperion لمؤلف اسمه هولدرلين؟²⁰

سارعت لاقتناء الكتاب وقراءته لتبدأ مباشرة رحلة البحث عن تراجم
قصائد الشاعر في المكتبات، وفي الفضاء الافتراضي.

ثمة من يقول إن النص أو القصيدة مكتف بذاته وأنه لا حاجة لك بمعرفة
من كتبه. من الممكن أن يصدق رأي كهذا على بعض النصوص وبعض
الكتاب لكنه موقف أخرق إذا طبّق على رجل لن تفهم شعره إن لم تعرف
قصة حياته.²¹

20 - Hölderlin: Hyperion -NRF-Poésie/Gallimard-Paris 1965

21 - <https://www.poemhunter.com/friedrich-holderlin/poems/>

فريدريش هولدرلين (1770-1843) أصدق مثال على صحة مقولتنا الشعبية: "عاش يتمنى حبة عنب، مات فوضعوا في فمه عنقوداً". تجاهله الناس طيلة حياته واكتشفوا عبقريته ميتاً. كتب عنه هايدجر أنه موقظ ضمير الأمة؛ أن الشعراء أمثاله لا يظهرون إلا إبان بزوغ الأمم أو أفولها، أنهم يبشرون بالفجر أو ينبّهون للظلام الدايم. لحن كبار الموسيقيين الألمان مثل براهمز وشتراوس مقاطع من أعماله. كتبت الكثير عن أشعاره، كما كتبت عن حياته التي هي بحدّ ذاتها رواية لا كالروايات.

ربما أمه أحسن نموذج للمرأة الرمزية الخيالية التي خلدها أحد أكبر الشعراء الفرنسيين بودلير (Baudelaire)²² وهو يصف رعب من شاعت لها الأقدار أن تحمل للوجود كائننا حُكم عليه قبل ولادته بالشقاء الأبدى:

*Lorsque par un décret des puissances suprêmes
Le Poète apparaît en ce monde ennuyé
Sa mère épouvantée et pleine de blasphèmes
Crispe ses poings vers Dieu qui la prend en pitié
Ah! Que n'ais –je mis bas tout un tas de vipères
Plutôt que de nourrir cette dérision
Maudite soit la nuit aux plaisirs éphémères
Où mon ventre a conçu mon expiation*

وترجمتها على الطاير:

لما بأمر من السلطات العليا ...
ظهر الشاعر في عالم الضجر هذا ...
رفعت الأم المرعوبة المشحونة كفرا قبضتها في وجه إله مشفق ...
أه لماذا لم ألد عشا من الثعابين ...
بدل إرضاع هذا المسخ ...
اللعة على ليلة متعة عابرة ...
حملت فيها أحشائي كقارة نوبوي "

هذا الذي جاء للوجود تكفيرا عن ليلة متعة عابرة طفل مات أبوه بعد سنتين من ولادته ثم لحق به زوج أمه سريعا .هكذا فقد الشاعر أبوين بدل واحد كما هو الحال عند غالب البشر، وشكل فقدهما مصدرا الهذيان منمق عند المحللين النفسيين؛ تفسيراً للمرض العقلي الذي عاش به الشاعر نصف حياته.

تتابعت ضربات الدهر التي لا ترحم... توقي له إخوة صغار... رحلت حبيبته التي خلد ذكرها في كتاب "هيبيرون"... فشلت كل محاولاته في العيش بكرامة، بمهنة معلم أطفال عند العائلات الثرية... رفضت دور النشر ترجماته وأشعاره وتجاهلتها النخبة المتقفة... تدهورت صحته ومعنوياته شيئا فشيئا، إلى أن أصيب وهو يقارب الأربعين بمرض عقلي لم يحدد ليومنا هذا. يُروى أن أحد الأطباء شكّا من هذا المريض الذي يهذي بالألمانية، والإغريقية، واللاتينية. قد يكون المرض انفصام الشخصية وقد يكون انهيارا عصبيا تاما، وقد تجاوزت ضربات القدر عليه طاقة الاحتمال؛ إذ لا يصمد الحديد أمام مطرقة أقوى من صلابته.

هكذا قضى الرجل ثلاثين سنة مريضا، فقيرا في ركن منزوي من منزل نجار أخذته به الرأفة وأواه إلى أن مات.

هل من الغريب أن يكتب رجل مثله شعرا كهذا:

"لا مكان، أعطينا لئرتاح فيه
نحن بشر الألم،
من انهيار إلى سقوط أعمى
ساعة بعد ساعة
مثل ماء يرمى
من منحدر إلى منحدر
سنة بعد سنة
إلى الأسفل نحو المجهول"

انظر الآن كيف غفر الشاعر للألم ما فعله به طوال حياته بل بحث له عن رسالة وعن عذر:

"كما لا يُسمع غناء العنديلين إلا في الظلام،
لا تُسمع الموسيقى الإلهية إلا في عمق العذاب"

هنا يتبادر إلى ذهني الرابط بين الشاعر الألماني وأستاذه الفرنسي الذي قد يفسر لهجة التأكيد في وصيته لي بخصوص هولدرلين.

للجحيم على وجه الأرض أكثر من شكل، عرفه عن كثب من يسميهم الشاعر "بشر الألم". القاسم المشترك بينهم حالة حسية شعورية فكرية، تجرّب إبانها الذات كل أصناف العذاب وأقصى قدر من الألم، لفترة لها نهاية إن واثاها الحظّ، وطول الحياة إن "نسيها" الله من رحمته.

تتخذ جهنم على الأرض أشكالا متباينة، يمكن أن تكون مستشفى أمراض عقلية، أو مأوى للعجزة في بلد فقير من العالم الثالث... منجما للفوسفور

يموت فيه العمال في الثلاثين برئتين محترقتين... سجن استبداد يمارس فيه التعذيب كل لحظة، والمشنقة تعمل ليلا نهارا على بعد أمتار من الزنانات المكتظة... ماخور يباع فيه الأطفال ويشترون لأبشع الممارسات الشاذة... سوق نخاسة تقلّب فيها الفتاة العارية، المتماوتة رعبا وخجلا لمعرفة درجة الاكتناز في فخذها ونهديها.

وثمة ما هو أفظع.

حتى في الحالات التي ذكرنا يبقى للإنسان شيء من الإنسانية. فالنخّاس مثلا يعطي ل "بضاعته" من الحقوق ما يعطي للحيوانات التي يريد بقاءها لمصلحته. كذلك يحاذر الجلاد ألا يموت السجين؛ خشية المشاكل مع الإدارة ومنظمات حقوق الإنسان.

لا شيء من هذا القبيل في الجحيم الذي عرفه مارك كلاين.²³

طرد الرجل من كلية الطب بمدينة ستراسبورغ، التي احتلها الألمان في بداية الحرب العالمية الثانية، ثم اعتقل وزجّ به في محتشد أوشويتز سنة 1943، ورمي فيه خادما للأطباء النازيين الذين اغتموا فرصة الحرب لإجراء أبشع وأخطر أنواع التجارب الطبية على المساجين.

داخل مختبرات التجريب. ينظر الطبيب النازي إلى الكائن المرتعش أمامه كما لو كان فأرا، أو أرنباً أو قرداً. يسجيه بكل برودة دم على طاولة التشريح، يحقنه بسمّ مجهول الآليات لدراسة مراحل موته، أو بجراثيم

23 - <http://www.phdn.org/histgen/auschwitz/klein-obs46.html>

وفيروسات هذا المرض أو ذاك، ثم يبدأ في تجربة مختلف الأدوية المتوفرة، لا يابه لصراخ هذا الكائن ولا يحس بشيء مما يشعر.²⁴

كيف يمكن لشخص شاهد هذه الفظاعة وأجبر على خدمتها أن يخرج من تلك التجربة سويا، ومواصلا الإيمان بكائن مثل الإنسان؟

أي كلام يمكن أن يؤخذ على محمل الجد بخصوص ضرورة الإيمان في الأمل، إن لم يأت من شخص على درجة عالية من المصادقية؟ ومن أين تأتي مثل هذه المصادقية، إن لم تكن من ذهابه هو الآخر إلى ما وراء الخط الأحمر في تجربة العذاب والألم؟

أفترض أن أستاذاً الجليل الذي دخل جحيم أوشويتز، لم يخرج منه محتفظاً بتوازنه وبيمانه بالبشر إلا بفضل الكثير من العوامل الذاتية التي سألها إلى الأبد، لكن أيضاً بفضل شاعر اسمه هولدرلين عرف الجحيم عن كثب ولفترة أطول.

*"راجع دون مجد إلى وطني،
هائم في أرضها كما لو كنت متشرداً داخل مقبرة
حيث لا ينتظرنني إلا خنجر الصياد"*

ومع هذا... ومع هذا كما يردّد إيسا في أكثر من هايكو :

*"ومع هذا لا زلتِ يا شمس السماء تشعّين.
ما زلتِ أيتها الأرض المقدسة تخضرنّين."*

24 - شكلت هذه التجارب موضوع رسالة الدكتوراه التي أعدتها تحت إشراف الأستاذ مارك كلين ونشرت بالفرنسية وترجمت إلى الإسبانية وهي موجودة على الموقع:

<http://www.moncefmarzouki.com/boutique/larrache-corps/?lang=fr>

ما زالت الأنهار تتسارع نحو البحر،
وما زالت الأشجار التي تفيء علينا بالظل،
تتهامس عند الظهيرة. "

الرجل في أسوأ حالة ممكنة؛ غريب في بلده، تائه في مقبرة مظلمة وسكين
الجزار مستعدّة لجزّ عنقه دائماً، ومع ذلك هو مصرّ على أن العالم بخير،
تشرق فيه الشمس، وتخضر فيه الروابي، وتهامس فيه الأشجار.

هل هذه الرسالة المشقّرة التي أُرادني أستاذي الجليل ألا أمرّ عليها كما نمرّ
أغلب الوقت على كل الدروس الصامتة في عالم كان وسيبقي بالنسبة
للإنسان جحيماً وسط الجنة، جنة وسط الجحيم؟

ماذا لو كان كل هذا من تركيب خيال جامع كذلك الذي يرى أشكال
حيوانات خرافية في مرور السحاب، وفي تناثر النجوم؟ ماذا لو كان الرجل
لم يقصد شيئاً من هذا الذي أعزوه إليه، وكل ما أتوهم هو من وحي خيالي
وأمني؟ ماذا لو كان ما سمينته أمراً مجردّ كلام عادي، كالذي أقول
لأصدقائي عندما أنصحهم بقراءة كتاب أعجبنني، دون أن أوحى بوجود
رسالة خاصة لهم عليهم اكتشافها؟

أسئلة لا ردّ لي عليها؛ لأنني لم أكن داخل فكر الرجل وهو يرفع إصبعه
في وجهي منبهاً ومحدّراً ليقول: يجب أن تقرأ لإنسان غاص في الظلمات
إلى أن أصبح جزءاً منها، لكنه وجد داخل ذاته القوة لكي يصعد إلى أعلى
مستويات الأنوار ويمتزج بها.

"عندما يذوب الواحد في الكل
ترمي الفضيلة بدرعها الصارم.

يترك الفكر صولجانه .
تنحط الأفكار داخل عالم واحد إلى الأبد .
يستقبل القادر القاسي .
يغادر الموت دائرة الأحياء ،
فيبراً هذا العالم من ألم الفراق والهزم
ليشع جمالا متزايدا "

أو قوله :

"تناسي الذات ليزوب الواحد في الكل الذي هو الطبيعة
أعلى درجات الفكر والفرح ،
القمة المقدسة السكنية الأبدية
حيث تفقد الظهيرة كثافتها
والرعد دويته
ويتمازج هدير البحر
بهمس تأرجح السنابل ."

سأبقى دوما مدينا لأستاذي الجليل بتبهيي لهذا الطود الشامخ في الفضاء
الفكري للإنسانية مثلما سأبقى دوما مدينا لهولدرلين بأبيات له أردها كلما
أرهقني صراع البشر ، فتنزل على نفسي بردا وسلاما .

"أصوات النشاز في هذا العالم صراخ عشاق
ففي قلب الخصام ضمن التصالح
ولا بد لكل ما تفرق أن يتجمع يوما "

ويتمان الشاعر الذي وسع قلبه كل العالم

والت ويتمان Walt Whitman (1819-1892) شاعر من كبار الشعراء الأمريكيين. عاش حياة بالغة الاضطراب. اشتغل صحفياً وموظفاً، وشارك في الحرب الأهلية الأمريكية ممرضاً. نشر أشهر أعماله *Leaves of Grass* سنة 1865 على حسابه، وواصل مراجعته إلى مماته. أثار الديوان موجة من النقد لاعتباره مسّ بالأخلاق الحميدة، لكن شهرة الرجل طبقت الآفاق لذا كان موته حدثاً وطنياً.

في تقديمه للديوان عرّف ويتمان الشاعر أحسن تعريف، في قوله: "أن تكون شاعراً يعني أن يستوعبك الوطن باللطف الذي تستوعبه"

كانَ شاعرنا ذهب إلى أبعد من ذلك فأراد لذهنه أن يستوعب العالم بأسره، وهذا جليّ في قصيدته الشهيرة "سلام إلى العالم" وقد أعطاه عنوانها هذا بالفرنسية *Salut au monde* كأنه يؤكد منذ البداية أنه يفكر من موقع شاعر غير حبيس لغته وثقافته.²⁵

القصيدة بالغة الطول واخترت بعض مقاطعها وترجمتها كالآتي:

"خذ بيدي يا والت ويتمان
يا لهذه العجائب، لهذه المناظر، لهذه الأصوات!
وكل واحدة تتجاوب مع الأخرى وتتفاسم معها الأرض
ما الذي يتوسع داخلك يا والت ويتمان؟
ما الموج وما هذه الأراضي التي تنضح؟
ما هذه الأجواء، أي بشر وأراضي كل هذا؟

25 - <https://www.juancole.com/2013/12/whitmans-salut-monde.html>

من هؤلاء الرضع اللاعبين منهم والنائمين؟
من هن هؤلاء القتيات؟ من هن هؤلاء النساء المتزوجات؟
لماذا هذه المجموعات من الرجال المسنين يسиров ببطء وأذرعهم حول أعناق بعضهم البعض؟
ما هذه الأنهار؟ ما هذه الغابات؟ ما هذه الفواكه؟
ماذا تسمع يا والت ويتمان؟
أسمع العامل يغني وأسمع غناء زوجة الفلاح
أسمع من بعد أصوات الأطفال والحيوانات في وقت مبكر من اليوم
أسمع أناثيد الأقباط في اتجاه الغرب والشمس بهدوء تنزل على صدر النيل الجليل
أسمع المؤذن العربي ينادي من فوق صومعة المسجد
أسمع الراهب المسيحي من هيكل الكنيسة، وسمع رد الصوت الأجلج
على الصوت الرفيع
ماذا ترى يا والت ويتمان؟
أرى الأماكن التي تتابع عليها كهنة الأرض: المنجمون، البراهمة، الصابئة، اللاما
الرهبان، المفتون والوعاظ
أرى ساحات الحروب في الأرض، والعشب الذي نبت فوقها والزهور والذرة
أرى رجال الأرض يعملون
أرى السجناء في السجون
أرى الأجسام البشرية المعيبة للأرض
أرى المكفوفين، والصم والبكم، الأغبياء، والمجانين
أرى القراصنة واللصوص والخونة والقتلة وتجار الرقيق في الأرض
أنتم كلكم سكان إفريقيا وأوروبا وأستراليا لا يهّم المكان
أنتم كلكم سكان ما لا يحصى من الجزر وأرخبيلات البحر.
أنتم يا من تستمعون لي من وراء القرون
وأنت أيها الفرد من أي مكان لم أنكره وأعتبره كالجميع
كل واحد منا ضروري
كل واحد منا لا حد له، له أولها حق على الأرض
عبر كل واحد تتجلى المعاني الأزلية للأرض

كل واحد منا ربّاني هنا كما هو ربّاني هناك"

ملاحظة عابرة حول توجّه الشاعر لنفسه بالخطاب وليس للقارئ. يذكر قوله "ماذا ترى أو تسمع يا والت ويتمان" بالطريقة التي يتحدث بها حافظ في غزلياته عن نفسه، وكأنه طرف ثالث:

" بشعر حافظ برفص شيراز في سرور وهناء" ...

أو قوله:

"وامرئ ساء من حبي لنفسي والورى يدري بسرّ كنت أخفيه وبنفس لم أبتلها
إذا ما شئت لقياه تذكر حافظ قولاً متى تلقى من تهوى دع الدنيا وأهملها"

لن أكون ذلك المرء المستاء من حب الشاعر لنفسه، فتلك خاصية توجد في كل ذات، وهي مركز عالمها فما بالك بذات الشاعر وهو يعتبر نفسه دوماً من طينة خاصة، وفي كل الحالات أكثر المرايا صقلاً لتلقي أشعة الإلهام والوحي.

الملاحظة الثانية تتعلق بهوية المخاطب. المعني هنا ليس حبيباً فرداً يشبّب به، ولا طاغية يلعن وقد يكون الدهر أحياناً، إنما يتوجه الشاعر بكل بساطة للبشرية جمعاء، وهذا أمر غير معهود في الشعر على الأقل بهذه الصيغة الواضحة والدقيقة.

لمعرفة درجة التخصيص؛ على القارئ العودة للقصيدة نفسها ليكتشف أن الشاعر يتوجّه لفيافي آسيا، للبحار، للجزر، للجبال، لسكان مصر والصين وانجلترا والنمسا، للهنود الحمر وللقبائل الرحّل، للذكور والإناث وهلم

جرا. رأينا في المقتطف حرصه على ألا ينسى أحدا فالمنسيون حاضرون بقوة في قلبه وعقله حضور المذكورين، لأنه يريد أن يوجه التحية للجميع:

*I see ranks, colors, barbarisms, civilizations — I go
among them -I mix indiscriminately,
And I salute all the inhabitants of the earth.*

الترجمة "على الطائر": أرى أفواجا، ألوانا، همجيات، حضارات، أدخلها، أمزج بينها دون تمييز - وأحيي كل سكان الأرض.

هنا يداهمني السؤال التالي وإن كنت متيقنا أنه لا وجود لمنهج أو معطيات تمكّن من الردّ عليه: هل كان بوسع شاعر غير أمريكي أن يكتب قصيدة بمثل اتساع هذه الرؤية وخاصة بهذا نفس؟

الشاعر مهما ادّعى وليد محيطه، وشاعرنا عاش ومات في بلد استوعب العالم داخل حدوده، وعلى استعداد عبر الامبريالية الناشئة لابتلاعه كليا خارجها. لننتدكر أنه لو اختفت كل البلدان إلا أمريكا لبقى أثر لكل أعراق البشرية وكل جنسياتها، إذ تشكلت أمريكا من أوسع خليط بشري لم يعرف له التاريخ مثيلا .

مما يعني أنّ الشاعر لم يكن بحاجة لحواسّ منقطعة النظير، أو لمخيلة تفوق ما وفرته الأقدار لغير الشعراء، فالبشر كانوا كلهم يتدافعون امامه في مدن وقرى أمريكا نهاية القرن التاسع عشر.

والآن بخصوص نفس القصيدة، هل كان بوسع شكسبير مثلا كتابتها، وهو الذي عرف أيضا بسعة الخيال وشساعة الرؤيا؟ لا أعتقد، لأن ويتمان كان

الشاعر الديمقراطي بامتياز، ولا أعني بالأمر انخراطه السياسي، ما أعنيه هو توجّهه نحو كافة الناس باعتبارهم مصدر إلهامه وفحوى مواضيعه. عُرِف الرجل بتأكيد الدائم على ضرورة التحام الشعر بالمجتمع، وإصراره على إنزال الشعر من عليائه ليكون في متناول عامة الناس، يحفظونه ويقدرونه بما أنهم يجدون فيه الأملهم وآمالهم. لا عجب أن تجد مثل هذه الأفكار طريقها لعقل ويتمان، في مجتمع جعل من الديمقراطية وما يترتب عليها من قيم -أساسا المساواة بين الناس- حجر الزاوية في بناء المجتمع.

السؤال الآن ما وراء قصيدة يمثل هذا الطول وهذا الموضوع؟

أول ملاحظة بخصوص نقطة المراقبة التي يتوجه منها الشاعر إلى العالم. هو لا يستطيع أن يمسح ببصره الأرض ومن عليها من كائنات إلا من أعلى قمم الفكر والروح... وهذا مكان لا يحتله أي إنسان وإنما إنسان بعينه.

الملاحظة الثانية أن الشاعر توجه بالتحية للإنسانية برمتها... وهذا حق لا يتمتع به أي إنسان وإنما إنسان بعينه.

أخيرا وليس آخرا حمل الشاعر للبشرية بشرى بأن كل فرد منها من أرومة إلهية، لأن بصمة الخالق موجودة دوما في المخلوق... لكن زفّ مثل هذه البشرى ليس من صلاحية أي إنسان وإنما إنسان بعينه.

قصيدة تتضح بقيم الحداثة لكن نواتها أقدم الرغبات المكبوتة عند الشعراء منذ وجدوا ألا وهي أن يعترف لكل شاعر بأنه ...

بوشكين وإشكالية النبوة عند الشعراء

حياة ألكسندر بوشكين (1799-1837) رواية رومنطيقية كالتى كتبها تحت عنوان "أوجان أنيقين"، والتي أصبحت منذ تاريخ صدورها سنة 1832 من أشهر الروايات في الأدب الروسي.

تبدأ القصة الشيقة بولادة هذا الطفل الروسي بلامح زنجية ورثها عن جد افريقي استعبده الإمبراطور بطرس الأول اسمه أبراهام هانيبال وترقى في بلاطه ليصبح أحد خواصه. في هذا الجدّ العبد كتب بوشكين سنة 1827 أول رواية تاريخية في الأدب الروسي بعنوان: "زنجي بطرس الأكبر".

تتواصل قصة غير مألوفة، وأهم مراحلها نبوغ الطفل ألكسندر مبكراً في كتابة الشعر، الشيء الذي زاد من اضطهاد أقران كانوا يسمونه "القرد". يتبع ذلك اضطهاد القياصرة المتتابعين على عرش روسيا وهم يرون في الشاب الموهوب شاعرا ثائرا على النظام متمثلاً أساساً في استعباد الإقطاعيين لصغار الفلاحين. بعدها تأتي مرحلة النفي والتشرد في أصقاع سيبيريا وآسيا الوسطى، ثم العودة إلى روسيا والكتابة تحت المراقبة الصارمة للبوليس السياسي، مع كمّ هائل من المغامرات النسائية، وأخيراً الموت في الثامنة والثلاثين من العمر برصاصة في البطن بعد مبارزة مع رجل راود زوجته.

كم كدّس الرجل في هذا العمر القصير من دواوين وقصص وروايات ومسرحيات منها التي أصبحت أوبرات شهيرة بعد أن عمل عليها كبار

الموسيقيين الروس مثل ريمسكي كورساكوف ومودست موزجورسكي
وسرقاي راكمانينوف.

الثابت أن ألكسندر بوشكين يمثل للروسيين ما يمثله الشابي للتونسيين،
وحافظ للإيرانيين: الشخص-الرمز لتقافة شعب. وحدهم الشعراء والأنبياء
من يحظون بمثل هذا الشرف الأثيل.

الشعراء والأنبياء!

سؤال قديم طالما اعترضني وأنا أقرأ لأكثر من شاعر: ما علاقة الشعر
بالنبوة؟

إليك قصيدة النبي التي ترجمتها على الطائر من الفرنسية التي كتبها بها
بوشكين، والرجل متقن اللغة موليار إتقانه للغة... بوشكين.

"بينما أنا تائه في صحراء مظلمة

وعطش الروح يعذبني

برز لي ملاك بأجنحة سئة

وأصابع رقيقة كالحم

لمس مقلتي

انفتحتا لتبصرا

كما لو كانت لنسر مرتبك

لمس أذني

فامتألتا ضجيجا وهمسا

انحنى على فمي

استل منه لسان الخطيئة

الناطق بالتفاهات والأكاذيب

بسيف شق صدري

استل منه قلبي الخفاق
وفي صدري المشقوق
دفن جمرة ملتهبة
وأنا جثة ملقاة في الصحراء
سمعت صوت الله يناديني
انهض يا نبي
انظر، اسمع
وأنت تعبر البحار والبراري
احرق بالكلمة
قلوب البشر"

هل فعل نبيّ الشابي شيئاً آخر غير " حرق قلوب البشر " بكلماته متوجهاً
إليهم وهم مشروع شعب لا يبعث كثيراً على التفاؤل والاطمئنان؟

"أنت روحٌ غيبية، تكره التور وتقضي الدهور في ليل مأس
أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حواليك دون مسّ وجس
أيتها الشعب أنت طفلٌ صغيرٌ لا عبّ بالتراب والليل مأس
أنت في الكون قوةٌ كَبَلَتْها ظلماتُ العصور، منْ أمسْ أمسْ"

كأن نيتشه اتبع النصيحة هو الآخر عندما توجه على لسان نبيه زارادشترا
لبشر هم مجرد مرحلة تعدّ للإنسان المننظر:

"وأنتم يا إخواني، كلموني، ماذا ينبئ جسدكم عن الروح؟
أليس فقراً ونفايةً ورضاً عن النفس؟
الحقيقة أن الإنسان مثل نهر قذر.
لا بدّ من محيطٍ بأكمله يلتقاه دون أن يتلوّث"

انظر الآن إلى قول نبي جبران وقد أدار ظهره لبشر يسخر من اعتقادهم بأنهم أصحاب العالم، وهم لا يملكون منه شيئاً ولا حتى أنفسهم أو ذريتهم:²⁶

"أولادكم ليسوا أولاداً لكم.
إنهم أبناء وبنات الحياة، المشتاقّة إلى نفسها
بكم يأتون إلى العالم ولكن ليس منكم.
ومع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم"

يمكن مواصلة تعداد الأمثلة، وكلها تؤكد الحضور القوي -حتى لا نقول هاجس صورة النبي وموضوع النبوة عند كبار الشعراء.

كم من كتابات نشرت عن علاقة الشعر بالنبوة، وكون الشاعر يتلقى هو الآخر نوعاً من الوحي يسميه الإلهام، وكيف أنه صاحب حلم ورؤيا كأبي نبي ذي روح صافية تتعكس عليها أشعة الحقيقة الربانية.²⁷

ألا يقول نبي بوشكين بكل جسارة "سمعت صوت الله يناديني، انهض يا نبي"؟ ألم يبرز له ملاك نظف عينيه، وأذنيه، ولسانه من كل الأدران والأوساخ لكي يهديه للبشر رغم ما هم عليه من قذارة وتلوّث كما يقول نيتشه، وغباء وحب للظلام كما يصرخ الشابى؟

26

-<http://www.mamnoo3ah.com/Books->

List/ShowBook/Philosophy/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A8%D9%8A

27 - سيد جودة -خبرة الشعراء

http://arabicnadwah.com/articles/gouda-prophecy_of_poets.htm

لتطرح إذا بكل وضوح الإشكالية المسكوت عنها أو الملفوفة بالغموض
المتعمد: هل الشاعر نبي وهل النبي شاعر؟

بخصوص النصف الثاني من السؤال، الإجابة للمسلمين معروفة والقرآن
الكريم قد حسم الموضوع في الآيات التالية:

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
الْأُولُوْنَ [الأنبياء:5]،

وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ [الحاقة: 41].

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ [يس:69]،

ونفس الشيء في بقية الديانات الكتابية، فلم يكن المسيح ولا موسى
شاعرين.

ماذا إذا عن النصف الأول من السؤال؟ هل الشاعر نبي؟ نحن لا نتحدث
بالطبع عن صغار منظمي القوافي في الهجاء والمدح وحب بنت الجيران،
المقصود هنا هو كبار القوم ممن تحفظ الشعوب ذكراهم، مثل الشابي
وبوشكين وطاقور.

ثمة في البداية الرؤية التي يحملها الشاعر عن نفسه وإن لم يبح بها جهرا
وإنما يعهد بها لظل أو ممثل خيالي يجعله بطل قصة هو راويها
وموضوعها.

ثمة رؤية بعض النقاد²⁸ وتركيزهم على أن الشعراء أصحاب رؤيا ومشروع وحلم ومن ثمة يمكن تصنيفهم حذو الأنبياء إن لم يكن مكانهم.

المشكلة أن المقارنة لا تستقيم أصلا فالنبي على صفاء روحه كائن عملي قبل كل شيء. هو التأثير المطلق الذي لم يأت للتوافق المغشوش مع واقع متعقن، وإنما لاقتلعه من جذوره واستبداله بواقع جديد. هو لا يكتفي بالبقاء في برجه العاجي يترجم ما يأتيه من إشارات سماوية، وإنما يخرج للعالم لتطبيق ما أنزل عليه من أوامر ولو تطلب منه ذلك التضحية بحياته. هو الأب الروحي للملايين من الذين سيمشون في الطريق الذي فتحه وأشار إليه.

لا شيء من هذا القبيل عند كل شعرائنا الكبار. هم يعيشون ويموتون في برجهم العاجي مكتفين بوضع رغبتهم المكبوتة في النبوة على لسان نبي افتراضي أعطاه الشابي وجبران ونيثشه وبوشكين أسماء مختلفة. قد يكون الأمر لا وعيا عند الشابي أو بوشكين، لكنه أكثر تجليا لدى جبران، وواضح كل الوضوح عند نيثشه الذي مات مقتنعا بأن كتابه "هكذا تحدث زاردوشترا" سيعوّض الإنجيل.

هل يمكن القول في هذه الحالة إنّ النبي شاعر مكتمل والشعر هنا لا بمعنى نظم القوافي وإنما بمعنى الوصول إلى أرقى أنواع الشعور بمأساة الإنسان، وبلورة أصلب الإرادة لتخليصه منها... بينما الشاعر مشروع نبي لم يستطع الذهاب بعيدا؟

28 - محرز راشدي: مفهوم الشاعر النبي في كون الشعر الرومنطقي

<http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=503948&r=0&cid=0&u=&i=0&q>

حقاً، فعل بوشكين ما أوصاه به ظلّه وصورته في مرآة نفسه. جاهد ليستلّ من داخل ذاته "لسان الخطيئة الناطق بالتفاهة والأكاذيب". قيل أن يدفن ملاك الإلهام الشعري وفي صدره المشقوق جمرة ملتهبة حملها داخل روحه إلى لحظة الموت.

لكن إلى أي مدى ساهمت كلماته في تقدم البشر الذي عانى منهم وعانوا منه؟ حقاً هو لم يرقى لمصاف النبوة لكن لو لم تلعب تلك الكلمات التي أراد أن يحرق بها قلوبهم دوراً ما ليفيقوا لما تذكره الروس وغيرهم من البشر إلى اليوم:

"إن خدعتك الحياة

لا تحزن، ولا تغضب

في اليوم الشجي، اهدأ

ثق، يوم الفرح آت لا ريب فيه

كل شيء عابر يمضي"

لاو تسو ولقاء الشعر والحكمة في أعلى القمم

كتاب لاو تسو "الطريق إلى الفضيلة" Tao-Te-king هو حسب الإحصائيات الغربية أكثر الكتب مبيعا في العالم بعد الإنجيل. كان اكتشافي له في الثمانينات لحظة فارقة في مساري الفكري إذ لم يخلُ من يومها كتاب لي خاصة "الرحلة"، من حضوره بقوة. أذكر أنني عرضت على صديق لي من شعراء تونس بأن نجمع إمكانياته الشعرية وإمكانياتي المتواضعة لترجمة الكتاب، ولم يذهب المشروع بعيدا.

هكذا بقيت أقرأ وأعيد قراءة الكتاب في التراجم الفرنسية والإنجليزية الكثيرة المنقولة عن الصينية والمتباعدة أغلب الوقت إلى أن عثرت بالصدفة على ترجمة عربية صدرت في مصر سنة 1998 للناقد والمترجم المصري علاء الديب (1937-2016).²⁹

أجمل ما يحوم حول الكتاب قصة وصوله إلينا، وهي قصة شعرية بأتم معنى الكلمة تقول إن لاو تسو عاش في القرن الخامس قبل الميلاد - العصر الذي عاش فيه كونفوشيوس- وكان المسؤول عن الأرشيف في بلاط إحدى الممالك الصينية المتحاربة، إلا أنه ملّ الصراعات السياسية فقرر الانسحاب إلى ما وراء حدود المملكة. ذات يوم امتطى ثورا - وحمارا في روايات أخرى - وعند وصوله مضيقا يفصل بين عالم الأدميين وعالم الطبيعة، كتب النص العظيم بطلب من أحد الحراس وصيّة للبشر الغارقين

29 - علاء الديب: ترجمة الطريق إلى الفضيلة-<https://www.alkutubcafe.com/book/IB7K05.html>

في غيهم لعلهم يهتدون. منذ تلك اللحظة لم يره أحد لكن لم يتوقف البشر على مرّ العصور عن قراءة كلماته.

كم من أسئلة كان وما يزال يثيرها فيّ "الطريق إلى الفضيلة"؟ هل نحن أمام نص موضوع طوال عصور تصرفت فيه الكثير من العقول والأيدي واختلقت له أبا خرافيا كما يقال عن هومير واليادته الشهيرة؟ هل هو كتاب شعري أم جملة من الحكم من المغالاة وضعها في خانة الشعر؟

أن يكون الشاعر حقيقيا أو خرافيا، فردا أم مجموعة، سؤال لا جواب نهائي عليه والمهمّ هو النص الذي بين أيدينا وبارك الله - أو الطاو - في من كتبه وحفظه للأجيال الصينية ولشعوب الإنسانية. أن يكون الكتاب من قبيل الشعر أمر لا جدال فيه إذ تلعب الصور الشعرية والأناقة اللغوية دورا مركزيا فيه للتعبير عن أعمق الأفكار الفلسفية.

لا مجال لفهم الكتاب إن لم نعرف من الكاتب، لكن وضعه في إطاره التاريخي والمعرفي يتطلب منا أن نلقي نظرة خاطفة على الغابة التي تنتمي لها الشجرة قبل العودة لنفحص هذه الأخيرة.

"الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبدا" مقولة شهيرة للكاتب كيبلينغ أحد رموز الاستعمار البريطاني في القرن التاسع عشر. أثبت المستقبل غباؤها خاصة أن الشرق والغرب يتمازجان بكيفية تستعصي اليوم على التفريق. بل كان حاضر كيبلنغ شاهدا ضدّها والشرق والغرب يلتقيان عند الحدود التي تفصل بينهما وتربطهما في نفس الوقت.

بالمناسبة، أين كانت هذه الحدود بالضبط؟

يضعها المفكر الفرنسي إيمانويل تود شرق إيران وأفغانستان مما يجعل الحضارة العربية الإسلامية الجزء الجنوبي من الحضارة الغربية والثقافة الأوروبية، ثم الأمريكية جزئها الشمالي. أما حضارة الشرق فتشمل شعوب الهند والصين واليابان والشعوب التي بينها.

ما الذي يجمع بين الحضارة العربية الإسلامية وما نسميه تجاوزا الحضارة الغربية أي الأوروبية الأمريكية؟ أساسا هو الدور المركزي للديانات السماوية الثلاث ودعماتها العملاقة الثلاث: موسى، عيسى ومحمد (ناهيك عن الاشتراك في نفس الجذور المصرية - البابلية - الإغريقية).

حاول أن تتخيل أن نسبة الموت العالية عند الأطفال لم تستثن طفلا اسمه موسى وثانيا اسمه عيسى وثالثا اسمه محمد. في أي عالم كنا نعيش اليوم؟ في عالم لم تحدث فيه الغزوات العربية، لم تبنى فيه الكاتدرائيات، لم تؤلف فيه موسيقى باخ أو تعلق على جدران المتاحف لوحات ميكالأنج !

مما يعني أن العالم الذي نعيش فيه - وإن لا نعي بالأمر - مصنوع في جزء أساسي منه من رؤية وتعاليم هؤلاء العملاقة الثلاث.

حاول الآن أن تتصور التبت دون المعابد البوذية، واليابان دون فلسفة الزن، والصين دون تعاليم كونفوشيوس ولاو تسو. سنكتشف أن الحضارات الشرقية التي نعرفها تأسست هي أيضا على دعائم عملاقة ثلاثة آخرين هم: بوذا الأمير الهندي الذي تخلى عن السلطة ولذاتها... كونفوشيوس الحكيم والسياسي الباحث عن أحسن سبل لإحلال السلام بين الممالك المتقاتلة في صين القرن الخامس قبل الميلاد... ولاو تسو المكلف بأرشيف البلاط في إحدى هذه الممالك.

هذا عن أوجه الشبه. ماذا عن الفوارق؟

تمعن في الأسس الفكرية التي بنى عليها العمالقة الثلاث الغربيون عالمنا.

- فكرة وجود الله باعتباره كائنا خالقا لقوانين الكون ولكل الكائنات ومنها الإنسان.

- فكرة أن العقد المقدس بينهما إيمان المخلوق بالخالق والاستسلام الكلي لإرادته في مقابل دعم الخالق للمخلوق والعناية به عبر إرسال الأنبياء له وحتى ابنه لإعانتته على النجاح في امتحان الوجود.

- فكرة الموت باعتبارها منعطفا في الحياة لا نهاية لها، إذ يكون بعدها بعث يضمن مواصلة هذه الحياة في آخرة توقر أروع شروط التواصل عند الالتزام بالعقد المقدس الذي حدد الله شروطه أو أقطعها في حالة الاخلال به.

إليك الآن الأسس الفكرية التي بنى عليها العمالقة الثلاث الشرقيون العالم الرمزي الخيالي الذي تعيش فيه أغلب الشعوب الشرقية:

- لا وجود لأي كائن غيبي خلق العالم في فكر بوذا. يشير كونفوشيوس إلى إرادة للسماء غير مشخصة أقرب لتصور العلماء المعاصرين لقوانين الطبيعة منها لتصور الأديان السماوية الثلاثة. أما لاو تسو فهو لا ينكر وجود قوة غيبية لكنه ينكر أننا نستطيع معرفتها.

- لا وجود لعالم آخر تتواصل فيه الحياة. الجنة تجربة يعيشها الإنسان داخل ذاته إن حرر نفسه من الشر الذي بداخله وجهنم تجربة معاكسة إن فشل في الأمر.

-لا مكان لنبي مكلف بمهمة سماوية لإنقاذ البشر، حتى وإن نزع بعض الأتباع لهذا التوجه. فبوذا شخص حرّ نفسه وأعطى الوصفة لكي يتحرر كل إنسان ويصبح هو نفسه بوذا أو "المستيقظ". كذلك الأمر عند كونفوشيوس ولاو تسو إذ لا أحد منهما أصبغ على نفسه أي نوع من القداسة، بل تقدم كل واحد منهما كإنسان ينصح الإنسان لا أكثر ولا أقل، وأنه ليس للبشر من خيار غير التعويل على أنفسهم ليحققوا خلاصهم وكل فرد هو المسؤول الأول والأخير عما يلحقه من خير وشرّ.

ثمة بالطبع فوارق بين العمالقة الشرقيين أنفسهم. أولها أن لاو تسو ترك كتابا بينما لم يترك بوذا وكونفوشيوس إلا تعاليم حفظها تلامذتهما وتناقلتها الأجيال. هذا ما يجعله أقرب لعقولنا نحن البشر المتجمعون تحت راية الديانات الكتابية. الرجل أقرب لعقولنا أيضا، لأن ما يسميه الطاو لا يبعد كثيرا عما نسميه الله حتى ولو كانت هناك اختلافات هامة.

"على نحو غامض تكوّن وتشكل
حاضر أبدا ودائم الحركة
ربما أم العشرة آلاف شيء"

يردّد الشاعر الفيلسوف في أكثر من مقطع أن الطاو "إلى الأبد مستحيل التعريف إذ الفكر البشري أعجز من أن يقدر على تصور ما لا يمكن تصوره، وعلى حصر ما لا يمكن حصره، أو تسمية ما لا يستنفذه اسم أو صفة... ومع هذا لا بدّ مما لا بدّ منه وإلا توقف كل كلام قبل أن يبدأ:

أنا لا أعرف له اسما، فلنسمه الطاو.
وعاء فارغ لا يمتلئ أبدا
منفصل لذلك هو ملتحم مع الجميع

يحقق كمال ذاته من خلال أعمال بلا ذات
أعلى الفضائل مثل المياه
تهب الحياة لعشرة آلاف شيء دون جهد أو سعي
تنساب المياه للأماكن التي هجرها الناس
كذلك هو الطاو"

هل قرأ إيليا أبو ماضي للاو تسو أم أنّ الأمر من قبيل توارد الخواطر
وإتفاق جزء من الذهن البشري على أن القوة التي تتحكم في الكون تهب
وتغدق، لا يخطر ببالها منّ أو مطالبة بشكر واعتراف. قارن بين الرأيين:

وشاهدت كيف النهر ييذل ماءه
وكيف يزيّن الطلّ وردا وعوسجا
تجىء إليه الطير عطشى فترتوي
ويغتسل الذئب الأثيم بمائه
فلا بيتغي شكرا ولا يدّعي فضلا
وكيف يروى العارض الوعر والسهلا
وإن وردته الإبل لم يزجر الإبلا
فلا إثم ذا يمحي ولا طهر ذا يبلى

نفس الفكرة المحورية يعود إليها لاو تسو باستمرار إذ يقول: الطاو هو
المحرك والمبدأ الذي يسيّر "العشرة آلاف شيء" أي كل ما هو موجود،
وجوهره أو الخاصية الطبيعية الأولى التي تعرقه هي ما يسميها الشاعر
"الفضيلة."

لندقق في المصطلح وهو بمثابة حجر الزاوية في فكر الشاعر الفيلسوف.

العشرة آلاف شيء تعتمد على الطاو
ومع ذلك هو ليس سيدها
لا يمنع عنها شيئا
ولا يطلب منها شيئا"

الفضيلة إذن هي العطاء اللامتناهي، التلقائي غير المشروط "للعشرة آلاف شيء" دون تفتير أو منّ أو طلب مقابل.

في هذه الحالة ما الحاجة لعبادة الطاو وسؤاله، وما الداعي للخوف منه وهو الذي يعطي على الدوام كل ما عنده لا ينتظر طلبا ولا يتوقع جزاء ولا شكرا؟

الردّ بديهي: لا حاجة لعبادة الطاو أو للتسول إذ ليس له أن يقدّم أكثر مما أعطى. أما إذا ظهرت الحاجة للعطاء عند الإنسان فذلك يعني وجود خلل عند السائل وعليه العودة لسبب الخلل يصلحه في ذاته قبل أن يطالب الطاو بتصحيح نقص ليس مسؤولا عنه. المشكلة أن عدم تشخيص الخلل الحقيقي - وهو نسيان النموذج وعدم الاقتداء به - يفاقم المعاناة بحلول لا تريد الطين إلا بلة.

انظر قول الشاعر الحكيم:

"عندما ينسى الناس الطاو العظيم
يرتفع قدر الشفقة، وتروج الأخلاق المصطنعة
عندما يتوالد الذكاء والدهاء والحكمة
يبدأ الادعاء الكبير
عندما لا يكون هناك سلام داخل الأسرة
يرتفع شأن محبة الأبناء وإخلاصهم
يسود ونام ظاهري وتضحية شكلية
عندما يسود البلاد الفوضى والاضطراب
يظهر الوزراء المخلصون"

أو قوله :

كلما كثرت القوانين والمحظورات
ازداد الناس فقرا
كلما زادت الأسلحة مضاء
زادت المتاعب في الأرض
كلما كان الناس أنكباء وشطارا
كلما زادت الغرائب في الأرض
كلما زادت القوانين والتنظيمات
زاد عدد اللصوص وقطاع الطريق "

ما المطلوب في هذه الحالة من الإنسان؟ وضع الخطى في خطى الطاو ولا
مجال آنذاك لأن يضلّ المرء طريقه:

كن أنت نفسك قدوة للعالم
اعرف المجد لكن اعتصم بالتواضع
تخلّ تتفوق
انحن تستقم
أفرغ نفسك تمتلئ
ارض بالقليل تصبح غنيا
امتلك الكثير تصيبك الفوضى والارتباك "

تكتشف في هذا الكنز الفكري الذي يشكله كتاب لاو تسو "لؤلؤة" ثمينة
أخرى قد تكون أجمل "مجوهراته" وهي التي ستعينك أكثر من أي شيء
على تحمل العالم وبشره .

تخيّل الليل في غياب النهار . تساءل أي معنى للأنتى لو لم يوجد الذكر .
كيف كنا نفهم ونعيش تجربة الحياة لو لم توجد الموت؟ ما معنى المرض
لو لم نجرب الصحة، ما معنى الصحة لو غاب المرض؟

تستطيع أن تواصل بكم من مثال لترتطم دوما بإحدى أهم قوانين العالم وهي أن الشيء لا يوجد إلا بنقيضه، البارحة، اليوم وإلى نهاية الدنيا .

من بعض ما يردده لآو تسو في هذا المعنى قوله:

تحت سماننا هذه يمكننا أن نرى الجمال جمالا

لأن القبح موجود

يستطيع الناس أن يروا الخير لأن الشر موجود

الفقر والغنى ينبعان من نفس المصدر

الصعوبة والسهولة يكمل كل منهما الآخر

الطويل والقصير يتناقضان

يقف العالي فوق المنخفض

الصمت والضوضاء يتناغمان

الأمم والخلف يتبع كل واحد منهما الآخر".

تأمل جيّدا في تبعات الفكرة وستكتشف أنها ستغير نظرتك لأشدّ ما تكره: القبح والشرّ والمرض. لا أقول إنك ستقبلهم ولكن ستتحملهم بصبر أكبر خاصة وأنت تدرك عبث محاولة التخلص منهم ومدى ضرورتهم لتذوق معجزة الجمال والخير والصحة، وجوهر الشيء لا يتضح إلا في المقارنة مع نقيضه.

من البديهي أن الرؤى التي تتحكم في تصورنا للعالم هي أيضا "وصفات" لصنع المجتمع المثالي والإنسان المثالي.

هكذا توصي الثقافة الشرقية الإنسان "الشرقي" بإتباع التعليمات التي يحث عليها لآو تسو وكونفوشيوس وبوذا، خصوصا التواصل والتعويل على الذات. كيف لا يكون هذا هو المطلوب من كائن ليس مركز الكون إنّما

مجرد مظهر من مظاهره؟ على العكس، لا تستغرب من ثقافتنا الغربية وخاصة العربية أن تجد فيها الكم الهائل من النرجسية وتورم الذات الذي رأيناه كاريكاتوريا عند المتنبّي والمعري والإنسان "الغربي" خليفة الله في الأرض وموضع مراقبة، والاهتمام بمصيره يستدعي أن يبعث له بالأنبياء وحتى بابنه نفسه كما يعتقد المسيحيون.

بالطبع لا أقول إنه لا توجد ذوات متورمة عند أتباع العمالقة الشرقيين، ولا أن التواضع خاصية مفقودة عند أتباع العمالقة الغربيين، وإنما هناك داخل وصفات الصنع تعليمات واضحة ومبهمة في اتجاه أو آخر مما يجعل الصفات في الشخصية القاعدية تتبلور كما وكيفا بطريقة مختلفة في هذه الثقافة أو تلك.

ملاحظة أخرى بخصوص وصفة الصنع هذه.

في أكثر من موضع ينصح لاو تسو الإنسان بالامتناع عن الفعل. هو لا يقصد بهذا أن يجلس الإنسان على مؤخرته لا يفعل شيئا، وإنما أن يقصر أفعاله على الحدّ الذي ترسمه الفضيلة وألا يتغلب عليه الغرور فيتصور أن التدخل في صيرورة العالم بدعوى إصلاحه سينجح والحال أنه لن يزيد الطين إلا بلة.

إنها فكرة لا تبلى وهكذا تجدها عند هولدرلين:

" الزم الهدوء

اترك الأمور تجري مجراها

لا تختلس، لا تحاول أن تطيل قامتك بشبر

كأنك تدعي القدرة على خلق شمس أخرى

تصنع لها أرضا وقمرًا جديدين"

يبقى أن الفعل الموتر الطامح بسذاجة لتغيير العالم هو من أكبر علامات الثقافة الغربية، والمؤسف أن العدوى انتقلت للثقافة الشرقية التي لم تجد في تراثها ما يحميها من فكرة بالغة السذاجة والخطورة، تعطينا الاحتباس الحراري مثلا والحالة التي عليها الكوكب فكرة عن نتائجها.

والآن، كيف نتصرف أمام كل هذه المواقف المتناقضة، وأيهما نختار إذا فرض علينا الاختيار؟

إنها إشكالية قديمة مطروحة منذ تلاقي المجموعات البشرية بعد طول فراق زمني، نتيجة انقطاع التواصل وظهور حضارات متباينة نسبيا في هذا المكان أو ذاك من الأرض.

إبان فترة العزلة هذه تكوّنت رؤى مختلفة لنفس الذهن البشري، مثلما تكوّنت تقاليد وعادات مختلفة في التفاصيل بين الأمم والشعوب وإن كانت واحدة في أهدافها.

وعند عودة الاتصال واكتشاف الاختلافات في الرؤى لم توجد إلا بضعة وسائل، لإيجاد أرضية مشتركة تمكّن من التفاهم في أهم ميادين الحياة المشتركة.

جُرّب تدمير معتقدات شعوب بإخضاعها بالحديد والنار لصالح شعوب أقوى. جُرّب - لصعوبة أو تكلفة هذا الحل-، التعايش الصعب الممتعض بين مختلف الرؤى تحت راية التسامح.

جُرّبت محاولات التوفيق ولو بضمن التلفيق بين رؤى لا يمكن لعاقل نزيه أن يجمع بينها.

وهناك أنضح ما وجد الفكر البشري من حلول للتوفيق بين تناقضاته، وإن نطقت بها أدمغة موزعة في الزمان والمكان. حقا كانت جد نخبوية وقليلة التأثير في مجرى تاريخ دموي عنيف، لكن الأهم هو وجودها فهي أيضا من بنات نفس الفكر الذي أمر بالقتل، والتسامح والبحث عن توافقات عرجاء.

أنظر موقف غاندي: "إنما الأديان لغات ناقصة يستعملها بشر ناقصون في محاولة التعبير عن حقيقة كاملة."

هل قال لاو تسو كلاما آخر، وهو ينبهنا إلى أن "كل اسم له ليس هو الاسم"؟

كان هذا هو موقف ابن عربي:

عقد الناس في الاله عقائد وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

طبعاً لا ينصح ابن عربي بتبني كل "البرمجيات" في نفس الوقت، وفي الأمر مدعاة لمزيد من الفوضى داخل ذهن بأمس الحاجة للنظام؛ لأي نظام.

الخيار عنده القبول بمختلف الرؤى كما تقبل بمختلف طرق طبخ الطعام أو بناء المساكن، لأن من طبيعة الفكر تقلب كل الاحتمالات وتجريب كل الممكن الباردة واليوم وغدا. داخل هذا القبول لا يبقى عليك إلا حسن سكنى البيت الروحي الذي ولدت فيه، وحسن الاعتناء به لكي يبقى دائماً نظيفاً، مشعاً ومفتوح الأبواب بكرم لكل من تنتظر منهم أن يستقبلوك بنفس الحفاوة في بيوت شبيها لهم الآباء والأجداد على مرّ القرون.

هل ثمة من تخلّص آخر لكي يتعايش داخلك ابن عربي ولاو تسو دون أن
تصاب بانفصام الشخصية، وعسر الهضم الفكري والروحي؟

كلمات الشاعر ... شاعر الكلمات

الشعر، شاعرا بعد شاعر، جيلا بعد جيل، مدرسة بعد مدرسة هو قبل كل شيء هيئة اللغة -تحديدا هبة لغة بذاتها- وهي في أوج بحثها عن الكمال أي عن شكل أو آخر من الجمال. من ثمة يمكن القول إن الشاعر - في مقاربة أولى- هو من يستكشف البعد الجمالي للغة في حين لا يتعامل أغلب الناس وأغلب الوقت إلا مع بعدها الوظيفي.

يبقى أن هذه اللغة التي يعمل عليها الشعر ليستخرج منها جمال الشكل والمضمون ليست أكثر من خزّان من الكلمات وطريقة ما في تنظيم تسلسلها.

لذلك لن ترى الشاعر العربي إبان عملية النظم -التزم بالقوافي، بهذا البحر أو ذاك، أو اختار الموشح أو الجزل أو الشعر الحرّ -إلا غارقا في تصفيف الكلمات.

أيا كانت قدرته على الإحياء والتصوير وبراعته في استعمال الترادف والرموز وكل سحر اللغة، هولا يفعل أكثر من تصفيف الكلمات.

أيا كان مدى نجاحه أو إخفاقه في بلورة أجمل الصور والأفكار فإن ذلك متعلق دوما بحسن تصفيف الكلمات.

كل مشاكلنا مع ترجمة الشعر تكمن في صعوبة تطابق الكلمات بين لغتين.

في استعراضنا لهذه القصيدة أو تلك لم نفعل سوى استعراض كلماتها.

الخلاصة أنه لا وجود للشعر خارج الكلمات مثلما لا وجود للموسيقى دون الأصوات.

لذلك من حقنا أن نستغرب قلة عرفان الشعراء للكلمات التي يدونها لا وجود لأشعارهم ولا للصورة التي يريدون تخليدها لأنفسهم. مَنْ منكم يعرف شعراء تغنوا بالكلمات ومدحوها، وشكروا فضلها عليهم وأكرموها بتنظيم عيد لها؟

من حسن الحظّ وجود شاعر تدارك العيب هو فرنسوا توسكال.³⁰

Tosquelles François (1912-1994)

اخترته لا فقط لأنه الشاعر الوحيد الذي نظم أشعارا في الكلمات، وإنما أيضا لأنه شاعر لا يعرفه إلا فتران المكتبات. كم من هؤلاء الشعراء المغمورين يستحقون الخروج إلى دائرة النور، وكم من المشاهير نفخت الصدف في صورهم ومألهم العودة إلى العتمة التي ما كان عليهم أن يفارقوها يوما! إذا تحية ل"عمال الحضائر" الشعرية ويا فقراء المجد والشهرة، يكفيكم شرفا أنكم قار عتم الكلمات لئخرجوا منها ما تيسر من الجمال والمعنى.

أن يكون فرنسوا توسكال الشاعر، طبيبا نفسانيا منتبها لخطورة الكلمات أمر ليس بالغريب والطبيب النفساني أعلم الناس بأن الإنسان كائن ماديّ في المجال الحسي... وكائن تنبّي اللغّة ذاته كما تهدهما.

30 - François Tosquelles: La chasse aux mots, Récital en six mouvements—Editions d'Une – Paris 2016

تخيّل آلة تمتص من الجسم كل سوائله. ما الذي سيبقى منه؟ تخيّل آلة تمتص من الذهن كل الكلمات التي تسمى الأشياء والكائنات والقيم التي تعطي لحياتك قيمة؟ ما الذي سيبقى منه؟ لا شيء يشبه الإنسان أو يذكر به. شاهد الآن ماذا يقول توسكال عن الأدوات التي يستعملها الشاعر والطبيب النفسي على حدّ السواء، لعلاج الأرواح، كلٌّ من منظوره. مقتطفات من قصيدة بالغة الطول وصعبة القراءة عنوانها "سأقول"، ترجمتها قدر الإمكان:

"في مخازن المعارض الأكاديمية
كل يوم يمكنك أن تأمر
بما يشبع جوعك للكلمات المنتهية الصلاحية
الإثنين يوم الكلمات العجفاء تباع بالثمن البخس
الثلاثاء يوم كلمات النسيان
الأربعاء يمكنك أن تملأ جعبتك
بالكلمات التي تسرق الكلمات
الخميس والسبت والجمعة
للراحة وافتعال الموت
الأحد لمباركة كلمات السرّ
وكذلك الكلمات العابرة، حاملة الأمل
الكلمات العارضة
التي تحلق كطائرة ورقية
ويد الطفل ممسكة بالخيط"

قراءة سريعة في القصيدة.

الكلمات زاد ضروري يجب أن تملأ بها جعبتك الاثنين والثلاثاء والأربعاء
وباقى أيام الزمان على طول امتداده وإلا أصيبت بجوع الروح، مثلما كنت
ستصاب بجوع الجسم لو توقفت عن التبضع الدوري لملء ثلاجتك من
الطعام.

لكن يا للحفيظة التي تتم عنها القصيدة؛ وكأنّ للشاعر ثأرا يريد أخذه من
كلمات هو بأمرّ الحاجة إليها لكنه يدرك كم بوسعها أن تكون
عجفاء...منتهية الصلاحية... تباع بالثمن البخس... مشحونة في المعارض
ليبيعها محتال لمغفل.

لو فكرنا قليلا لما لمنا الشاعر على موقفه، ونحن طوال الحياة ضحايا
الكلمات... وجلادون نسلخ بها الآخرين.

كم من كلمات ندمغ بها الأرواح كما ندمغ الرؤوس بالحجر. دماغه جريـر
نموذجاً:

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

حدّث ولا حرج عن أذى الكلمات المخاتلة، المناقفة، المنتبى في مدحه
لكافور نموذجاً:

وما طرّبي لّما رأيّتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فاطربُ
وتعذّاني فيك القوافي وهمت ي كأي بمدح قبل مدحك مُذنبُ

إنه نفس الرجل الذي استعمل الكلمات السافلة (عبد، مناجيس، مناكيد) في
وصف نفس الشخص.

هناك الكلمات التي نتصيّد بها الآخرين.

يقول الحصري:

نصبت عيناّي له شرّكا في التوم فعزّ تصيّد

ألم يكن من الأصحّ أن يقول-هو وكل شعراء الغزل-: نصبت له كلماتي شرّكا؟

ما أكثر الشرك التي نصبها لبعضنا البعض وكلها مصنوعة من الكلمات. هناك كلمات النسيان التي تحاول التغطية على ذكريات محفورة بالكيّ في الوعي واللاوعي كما تغطي الضمادة جرحا ينزف. محمود درويش نموذجاً:

"تمثالٌ رُحاميّ هو النسيان. تمثالٌ
يحمّلُ فيك: قفّ مثلي لتشبهني.
وضّع ورداً على قدمي"

من نفس القبيل كلمات السرّ وهي كل التي تستعمل دخان تمويه وتعمية حتى يجذب انتباه الفضولي إلى الكلمات الخادعة ويبقى السرّ سرّاً... على الأقلّ لأطول مدة ممكنة. قال أحدهم:

"إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه
فصدر الذي يستودع السرّ أضيق"

هل ثمة مهمة للفكر أكثر صعوبة من إسكات الكلمات التي تموج داخله حتى يبقى سرّه مجهولاً حتى لذاته؟ ذلك ما يدعيه علماء التحليل النفسي ومهمتهم انتشار الكلمات الخرساء لتتطق بالمعنى من جديد. ثمة مهمة أكثر

استحالة: فهم سرّ الكلمات نفسها بالكلمات والأمر كمحاولة العين رؤية نفسها وهي تبصر.

ماذا عن الكلمات "المنتهية الصلاحية" والتي تبقى مع هذا في الخدمة وكأننا نواصل استعمال دراهم القرون الوسطى بجانب العملة المزيفة في معاملاتنا التجارية. إنها الكلمات التي شابت وهرمت من كثرة الاستعمال والترديد والتفويض. مثلا: الحبّ، العدالة، الحرية، الكرامة، الإنسان.

كلها كلمات "عجفاء" تحمل معان يابسة مثل بعض الثمار التي لم تقطف في الأوان فجّقت على أغصانها.

المعضلة أن هذه الكلمات العجفاء هي الكلمات-الأغصان المثقلة بشهي المعاني...الكلمات الحاملة للأمل...التي تحلق عاليا في السماء تبحث عن مصدر للإلهام والوحي .

لا يبقى علينا إلا أن نغرف من مخازن " المعارض الأكاديمية " التي تتكدس فيها هذه الأدوات الضرورية جيلا بعد جيل تروي تطوّر تجربة الإنسان. من هذا الخزّان المفتوح للعموم بغثّه وسمينه، يغرف الشاعر كلماته ليؤلف منها قصائده كما تفعل الفنانة اليابانية وهي تؤلف بين مختلف الزهور وفق قواعد فن "يكيينا"... أو كما يفعل الصائغ العاكف على استخراج أجمل القلائد من مواد خام لا تتصاع إلا لخيال ويد العامل الماهر .

السؤال المركزي الذي لا يردّ عليه فرنسوا كوستال هو كيف ينبثق الجمال والمعنى من تصفيف كلمات الكثير منها " عجفاء"، " منتهية الصلاحية"،

"عارية"، "تباع بالثمن البخس" والأمر كقدرة الفنانة اليابانية على تأليف أجمل الباقات بأزهار الكثير منها ذبلت واتسخت من كثرة التداول بين الأيادي؟

إنه سرّ الخلق والإبداع في الشعر كما في الموسيقى والفنّ التشكيلي، أشكّ بصراحة أن نفكّ يوماً أحاجيه.

على هامش النصّ - كيف وُلد الشعر؟

لا يتصوّر أحد أنه بدأ في الشكل الذي نعرف أي كلاماً موزوناً، فيه العديد من الأبيات، انتقيت كلماته بعناية فائقة.

إنّ كيف كان في انطلاقته الأولى؟ سؤال بصعوبة سؤال كيف بدأت اللغة إذ لا يتصوّر أحد أنها تشكلت دفعة واحدة في بداية التاريخ ولم تعرف بعد ولادتها كاملة إلا الإضافات والتغييرات الجزئية.

ليسمح لي بفرضية جاءتني وأنا أتابع ... مظاهرات الربيع العربي كمنتبه لما وراء الظواهر السياسية البحث.

انظر الشعارات التي رُفعت وأشهرها " الشعب يريد إسقاط النظام"، هتفت به الحناجر من درعا إلى درنا مروراً بتونس والقاهرة وصنعاء.

كأنّ هذا الشعر صرخة تفجّرت من الأعماق محملة بكمّ هائل من الألام والأمال. ماذا لو كان منطلق قصيدة توقفت أو اكتملت عند كلماتها الأربع؟

ثمة شعار آخر رُفِعَ فقط في تونس ذهب خطوة أخرى في طريق
التشكل كقصيدة:

يا " تجمّع" يا حقير حسمت فيك الجماهير.

بيت فيه صدر وعجز وفيه وزن رددته آلاف الحناجر الغاضية وهي
تضرم النار في مقرات الحزب الحاكم الموصوف "بالحقير"، لكن لا
أحد يعرف من ارتجله.

ثمة شروط تضافرت لكي يبرز هذا البيت للوجود:

اللحظة: إنها الثورة طبعاً... مما يعني أن الثورة لحظة شعرية أي أنه
بقدرتها أن تولد براعم الشعر والشعر نفسه في مرحلة ثانية.

لكن الثورة وإن كانت لحظة شعرية، ليست وحدها القادرة على
تفجير المشاعر الجياشة التي ينبع منها الشعر. يكفي أن يوجد أي
حدث خارق للعادة يستلّ من أعماق الذات صرخات الغضب أو
الرعب أو الانبهار لكي يوجد الشعر بما هو ربما اللبنة الأولى
للشعر. أنظر الآن للخصائص الأخرى لتبلوره العفوي.

الكلمات: هي قليلة، جميلة، سهلة الحفظ والتذكر والترديد.

القائل: مجهول التقط خطورة الحدث ولخصه في فكرة أو صورة
دامغة.

الواقع: إنه شديد على عقول وقلوب كثيرة فقد صادف أن الشعار-
الصرخة شكل أصدق تعبير عما تفكر وتشعر به أغلبية المشاركين
في الحدث الجلل.

الإيقاع: إنه هو الذي يقربها من الغناء أو يجعلها تنتقل بسهولة لأغنية. ليس من باب الصدفة أن يقال في لهجة الجنوب التونسي للشاعر غثي وأن يقال بالفصحى إنه "أنشد" قصيدة عصماء. ثمة علاقة وثيقة قد تكون وجود جذع مشترك في بداية التاريخ بين الشعر والغناء ثم أعطى في مرحلة ما من تطوره الغصنين المستقلين.

هل من الممكن ان الذي نسمعه من فيروز ولويس أرمسترونج انطلق بداية التاريخ البشري من وولولة ثكلى وترنم أم تحاول تهدئة رضيع يرفض النوم.

في نفس السياق هل من الممكن أن قصائد هولدرلين والشابي والخيام وشيكي وطرفة ابن العبد صقل وتطوير للصرخات العفوية والكلمات البسيطة التي انطلقت من إنسان كل زمان ومكان وهو في حالة قصوى من الرعب أو الانبهار، من الفرح أو الحزن، من السعادة أو البؤس أي تحت وقع مشاعر نطقت بها الأحشاء قبل اللسان؟

نعم، لكن الشعار ليس الشعر كما الخطوة الأولى ليست الطريق وإن بدأ كل طريق بخطوة أولى.

في آخر المطاف، ما الشعر؟

تعريف الشعر عند ميخائيل نعيمة³¹: "قسم منا ينظر للشعر من ناحية تركيبه وتنسيق عباراته وقوافيه وأوزانه والآخر يرى في الشعر قوة حيوية، قوة مبدعة، قوة منطلقة إلى الأمام والشعر في الحقيقة ليس الأول وحده ولا الثاني فقط بل هو كلاهما. الشعر هو غلبة النور على الظلام والحق على الباطل. الشعر هو الحياة باكية وضاحكة، ناطقة وصامتة، ومولولة ومهللة وشاكية ومسبحة ومقبلة ومدبرة"

أتمنّى في هذا التعريف فلا أجد فيه إلا عموميات لا تغني ولا تسمن من جوع. كيف يكون "الشعر هو الحياة" وما معنى أنه قوة منطلقة إلى الأمام؟ لقائل أن يقول أهل مكة أدرى بشعابها فاسأل الشعراء. يقول الشابي (نفس المرجع): "الشعر تصوير وتعبير، تصوير لهذه الحياة التي تمرّ حواليك مغتية ضاحكة لاهية، أو مقبلة واجمة باكية، أو وادعة حالمة راضية أو مقبلة واجمة باكية، أو وادعة حالمة راضية، أو مجدفة ثائرة ساخطة وتعبير عن تلك الصور أو هاته الأثار بأسلوب فني جميل ملؤه القوة والحياة"

حتى هذا التعريف لا يشفي غليلي، فالشابي يصف الشعر بأنه "تصوير وتعبير" لكنه تعريف يصدق أيضا على الرسم الزيتي كما مارسه موني وفيلسكاز ويصدق على الموسيقى كما بلورها دوبوسي وبتهوفن. إنه يتحدث عنه أيضا باعتباره أداة تعبير عن "هذه الحياة التي تمرّ حواليك

31 - محمد مصطفى هدارة: دراسات في الشعر العربي - منشأة المعارف - الاسكندرية 1970

مغنية ضاحكة لاهية الخ"، لكن أدب الجاحظ ودستوفسكي ينجح أحيانا أكثر من الشعر في تناول مختلف جوانب الحياة الإنسانية.

حقا أهل مكة أدرى بشعابها، لكن المتجول على شاطئ البحر وعداء سباق المائة متر يعرفان المشي والجري لكن لا أحد منهما يعرف بالضبط كيف يتحكم الدماغ في الرجلين وكيف يتكفل بكل العمليات الهائلة التعقيد التي تسمح للأول بالتمتع بفسحته والثاني بالميدالية الذهبية .

تقول عرّف الأمر كما شئت أو كما شاءوا، المهم وجوده والمتعة التي تأتينا منه.

نعم، لكن كيف لا نتساءل عن طبيعته أو عن الآليات التي يحركها الشعر داخل الذهن، والتي جعلتنا نصبح على منغته هذه من المدمنين.

نشاء الصدف التي تتحكم في مجرى حياتنا بأكثر ما نودّ ونعترف، أن أدعى سنة 2004 لتقديم ورقة علمية عن الطب الاجتماعي بتونس، في مؤتمر دولي انعقد بمدينة ملبورن بأستراليا. لم يخطر ببالي يومها أنني لن أعود فقط بمعلومات جديدة عن تجارب زملاء من شتى أصقاع العالم في مجال اختصاصي، وإنما برؤية جديدة للشعر.

نقطة انطلاق المراجعة والتفكير وقوفي على متشردّ ملقى على قارعة الطريق. ربما كان سكرانا ولا أحد يتوقف لنتساءل ما الذي بوسعه أن يفعل لإعانة البائس. أدركت من ملامحه لكثرة ما رأيت من الصور للسكان الأصليين أنه واحد منهم، ويسمونهم في أستراليا "الأبريجانز".

كنت قد قرأت بعض الشيء عن مأساتهم، وكيف أن الغزاة الذين "اكتشفوا" القارة سنة 1770 واستعمروها فيما بعد، عاملوهم كالحوانات، ولم يعترفوا بإنسانيتهم ومواطنتهم إلا في الستينيات من القرن الماضي.

كان بديهيًا بالنسبة لهم أنهم لا يملكون الأرض وإنما هي من تملكهم، والأجداد خرجوا من رحمها، كما خرجوا هم من أرحام أمهاتهم. ومن ثمّ دهشتهم من الغزاة البيض الذين يطوقون جزءًا من الأرض يدعون ملكيتها أو يعاملون الحيوان والنبات بلا مودة ولا احترام. من المضحك أنّ هؤلاء البشر هم الذين كانوا يوصفون بالهمج والمتوحشين والحال أن الهمجية والتوحش كانت لدى الطرف الآخر.

هؤلاء الأبوريغانز باتفاق كل الباحثين أقدم عيّنة من بشرتنا التي يسميها علماء الأنثروبولوجيا "الإنسان العاقل" أو *Homo sapiens*.

المتفق عليه إلى اليوم أن هذا الإنسان نشأ في الجزء الشرقي والجنوبي من إفريقيا... أنه خرج من مسقط رأسه منذ مائتي ألف عام أو أكثر... أنه توالد وتكاثر وتوسع في كامل الأرض جيلًا بعد جيل... أن فرعا منه استوطن الشرق الأوسط... وفرعا آخر دخل أوروبا ليعطي الأوروبيين... أن فرعا ثالثا توجه شرقا ليستوطن آسيا ويعطي الآسيويين... أنّ من هؤلاء الآسيويين من عبر مضيق بيرنج منذ عشرين ألف سنة ليعطوا سكان الأمريكيتين... أن هناك فرعا رابعا تبع شواطئ الهند واندونيسيا الحالية ليصل إلى أستراليا منذ أربعين ألف سنة خلت وأعطى الأبوريغانز

يومها كانت أستراليا مرتبطة بالبرّ، لكن ارتفاعا في مستوى البحر عزل الأرض ومن فوقها عن آسيا. هكذا فقد البشر الذين سكنوا الجزيرة القارة كل ارتباط بباقي أعراق الإنسانية، على خلاف كل المناطق الأخرى التي ترابطت فيما بينها باكرا رغم بعد المسافات.

لهذا وعلى عكس بقية أعراق وأمم الإنسانية، حافظ السكان الأصليون لأستراليا على الشكل والمظهر للإنسانية الأولى وكذلك على عاداتها وتقاليدها إذ عاشوا على الجني والقنص كما عاش الأوائل.

يعتقد الكثير من الباحثين أنهم حافظوا أيضا على رؤيا الإنسانية الأولى للعالم لذلك جمعوا بعناية أساطير قبائل لها أكثر من مائتي لغة في محاولة لفهم هذه الرؤيا

ما يميز أساطير الأبوريغانز عن كل التي وصفها جامس فرازر³² وكبار علماء الأنثروبولوجيا هو مركزية الحلم كعنصر أساسي في بناء تصورهم للعالم ومكان الإنسان فيه. تضع رؤياهم بداية الوجود في زمن تسميه زمن الحلم ((dreamtime)) خلق فيه كل شيء ابتداء من أحلام كائن تجمّع فيه ذكاء الكون واسمه باء-أي-أم. من هذه الأحلام انبثقت كل الكائنات، ومنها أجداد السكان الأصليين الذين عاشوا وتقاتلوا، وأكل بعضهم البعض وتشتتوا في الأرض ذات العرض والطول. هؤلاء البشر ليسوا مجرد أحلام تجسّدت، هم أيضا حالمون يواصلون بأحلامهم الخاصة خلق عالم مصنوع من أحلام داخل أحلام داخل أحلام، وهكذا إلى ما لا نهاية. عالم

32 - James. G. Frazer: The Golden Bough –The roots of religion and folklore. Avenel books. New-York 1981

الأبوريغانز إذاً ليس معطى موضوعيا موجودا من الأزل خارج الذات فواقعه أحلام وأحلامه واقع، والبشر مجرد حالات مؤقتة من أحلام التأسيس.

إنه عالم سحري بامتياز والعالم السحري معرّف باختفاء كل فوارق جذرية بين الكائنات التي تتحرك على سطح الأرض، بما أنها كلها أحلام انبثقت من حلم الحالم الأكبر. في مثل هذا العالم يمكن للإنسان أن ينقلب حيوانا وأن ينقلب الحيوان إنسانا، أن ينطق الصخر ويتكلم النبات، أن تكون لكل الكائنات أحاسيس ومشاعر وأفكار ومغامرات تعيشها كما هو الأمر بالنسبة للبشر. هكذا كان بديهيًا بالنسبة للأبوريغانز أنهم إخوة البرق والرعد والصخر والنبات، إضافة إلى كل أصناف الحيوان.

انظر الآن العالم الذي يتحرك فيه الشابي. إنه عالم يُستكشف بـ "بأقدام مجنحة، تطير"، والشاعر فيه كائن حيّ يحيا "كما تحيا البابل، والجدول، والزهور" "يصيحُ للصوتِ الإلهيِّ" و "يكلم القدر" و "لهيبُ الكون في قلبه". في مثل هذا العالم يمكنه أن يقول:

وأطرقْتُ أصغى لقصف الرعودِ وعزفَ الرياحِ ووقع المطرِ

أو أن ينصح:

وارقص على الورد والأشواك مُنْدا غنّت لك الطيرُ، أو غنّت لك الرجم

إنه زمان غير زماننا:

"أيام كنا لبَّ هذا الكون، والباقي قشورٌ
أيام تفرشُ سُنْبنا الدنيا بأوراق الزهور"

"أيام كنا! أين؟ إنه مكان غير الذي نتحرك فيه..."

في الغاب سحرٌ، رائعٌ متجدِّدٌ
وشذى كأجحة الملائك، غامضٌ
وجداولٌ، تشدو بمعسول الغنا
ومخارفتٌ نسجَ الزمان بساطها
وحنا عليها الروح، في جبروته
في الغاب، في تلك المخاريف، والرِّبا
كم من مشاعر حلوة، مجهولة
غنت، كأسراب الطيور، ورفرفت

باق على الأيام والأعوام
ساحٍ يرفرف في سكون سام
وتسييرٌ، حالمة، بغير نظام
من يابس الأوراق والأكمام
بالظن، والأغصان والأنسام
وعلى التلال الخضراء، والأجام
سكرى، ومن فكر، ومن أوهام
حولي، وذابت كالسخان أمامي

بديهي أن هذا العالم السحري هو صدى لعالم الأحلام، أكانت أحلام النوم
أو أحلام اليقظة.

هل من الصدفة أن نجد حجر الزاوية في عالم الأبوريجانز أي اللحم بمثل
هذا التواتر والكثافة والترديد في شعر الشابي؟

انظر قوله:

وأسييرٌ في دنيا المشاعر، حَالما
غردا وتلك سعادة الشعراء

أو قوله:

أمشي بروح حالم، مؤهـج
ففي ظلمة الألام والأدواء

أو قوله:

واجعل لياليك أحلاما مغردة
ان الحياة وما تدوي به حلم

أو قوله :

إن هذه الحياة قيّارة الله وأهل الحياة مثل اللحون
نغمٌ يَسْتُثِي المشاعر كالحلم وصوتٌ يُخِلُّ بالتلحين

هنا يمكن للقارئ أن يحتج مذكرا بأن ما ينطبق على العالم الشعري للشابي
ولكل الرومانسيين لا ينطبق على شعراء كثير لا نجد عندهم أدنى ذكر أو
صدي للأحلام.

حقاً؟

إنّ مركزية الحلم في تجربة الوجود فكرة عنيدة، لم تختف يوماً منذ بداية
تاريخ الإنسان. نحن نجدها مثلاً في التساؤل الحائر عند أكبر حكماء
الصين:

" حلمت ذات مرة أنني فراشة

فمن أنا؟

لاو تسو يحلم أنه فراشة

أم فراشة تحلم أنها لاو تسو؟"

هل من باب الصدفة أيضاً أن يقول هولدرلين: "الإنسان إله عندما يحلم
ومتسوّل عندما يفكر."

لقائل أن يقول: إنها شطحات الشعراء الرومانسيين، لكن لن تجد مثل هذه
الصور غير العقلانية عند بقية الشعراء.

حقاً؟

نُقب جيدا في شعر كل شاعر، وستجد أكثر من أثر للعالم السحري وللحلم الذي يولده.

إليك قول المعرّي، الرجل الذي وضع العقل في مقام الأنبياء:

أبكت تلكم الحمامة أم غتت على فرع غصنها المياد

هو لا يضيره أن يجعل الحمام يبكي كما يبكي البشر، ويعاضده في نفس الموقف أبو فراس في قوله:

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارة هل تشعرين بحالي

نحن نقبل من الشعراء بكاء الحمام، ولا نقبله من بائع الدواجن لأننا نضبط أليا موجات الالتقاط لذهننا على موجات البثّ للشاعر، ننقل به ومعه إلى عالم لم يغادرنا ولم نغادره يوما خلافا لكل ما نقول ونعتقد.

انظر أشهر بيت للمنتبي:

الخيّل والليل والبيداء تعرفني والرمح والسيف والقرطاس والقلم

لو قال: أنا أعرف الناس بالليل والخيّل والبيداء، لما وجدنا للبيت أدنى طعم بل لاستكراه باعتباره مظهرا من مظاهر تورّم ذات مريضة. لكن البيت يكتسب كل شاعريته عندما يجعل المنتبي الليل والبيداء والخيّل هي التي تعرفه لأنها في الفضاء الشعري كائنات لها وجود وحضور وشعور وتفاعل عميق مع الذات البشرية.

يمكن تعداد الأمثلة إلى ما لا نهاية والنتيجة دوما واحدة: حضور الحلم والسر عند أغلب الشعراء. كل ما هناك أن الأمر واضح كل الوضوح عند من نسميهم الرومنسيين ومخفي أو مبهم لدى الآخرين.

بديهي إذن أن العالم السحري والعالم الشعري وجهان لنفس قطعة النقد. لنتذكّر هنا أن التوجّه الغريزي والغالب عند الطفل والبدائي هو التعامل السحري مع العالم، وهو الذي يُقَمع تدريجيا بالتربية و "التحصّر" لإجبارهما على التعاطي العقلاني الأكثر فعالية في الصراع من أجل البقاء. وحده الشاعر من يحافظ على هذه النزعة المدفونة عميقا داخل كل ذات حتى وهو كهل و "متحصّر".

أليس هو أيضا من يؤمن بقدرة الكلمات على تغيير الواقع أو أن تكون بديلا له وهذه بالضبط طريقة تفكير البدائي والطفل. ما أغرب أن تكون أرقى أشكال الفكر والخطاب أقربها إلى الأصول!

لقاتل أن يقول : لكننا بصدد النقدّم العلمي والتكنولوجي ومن ثمة ستخفي كل بقايا العوالم السحرية للبدائيين؟

حقا؟ خذ مثلا ظاهرة ألعاب الفيديو التي تدرّ مليارات الدولارات على صناعات كاملة سُخرت لتطويرها، وطلبُ الملايين من الشباب والكهول يتزايد عليها يوما بعد يوم. ادخل بعض هذه الألعاب لتجد نفسك في فضاء تتكلم فيه الطيور وتتحرك الجبال، لتعيش للحظات مغامرات مع كائنات مركبة من رؤوس قردة وأجسام بشر كالتي عاشها في الأحلام أجداد

الأبوريجينز. أهي مجرد ألعاب؟ كلا، بل براعم العوالم السحرية المستقبلية تتحكم في مخرجاتها مخيلة لا حدود لها مدعومة بأقصى قدرات الحواسيب أخيرا لا أخرا. إذا كان العالم السحري منبع وفضاء الشعر، أليس كل الناس في المجتمعات الموصوفة بالبدائية شعراء بالطبع والسليقة؟ هم لم ينفصلوا يوما عن العالم الذي تحن إليه ذاكرة الخيال ويتغنى به خيال الذاكرة كما هو الأمر عندنا نحن الذين انفصلنا عنه انفصالا موجعا. ما حاجتهم بشاعر محدد وهم يعيشون كلهم الشعر بدل سماعه من البعض منهم؟ لتصور الشاعر في مثل هذه المجتمعات نوعا من الناطق الرسمي في حزب يتشارك أفراده في نفس المعتقدات وكل ما في الأمر أنه مكلف من قبل المجموعة الشاعرة بالتواصل مع السلطات العليا التي تتحكم في الموجود. هو ينقل لها آلام وآمال " الشعب " ويحمل إلى هذا الأخير الأوامر والنواهي لكي تستقيم أحواله.

هل هذه الوظيفة التي لم تختف أبدا من اللاوعي الجماعي هي التي تعود للسطح دوريا عبر إشكالية علاقة الشعر بالنبوة؟

في هذه الحالة هل يمكن اعتبار " البدائين " شعبا من الشعراء؟

توحي لنا منطقة من غرب أستراليا تدعى موروكا ببعض إمكانيات دعم مجرد فرضية لا أكثر.

إنها منطقة وجد فيها علماء الآثار مئات الآلاف من الأعمال الفنية التي يقدر عمرها بعشرات آلاف السنين، هي رسوم) على جدران الكهوف أو صخور) منحوتة فريدة من نوعها في أستراليا وفي العالم. وهذا ما جعل من موروكا منطقة أثرية لا تقدر بثمن، تجدد للحفاظ عليها أكثر من منظمة

أسترالية ودولية؛ وقد شاء الحظ العاثر أن تقع في منطقة استثمار حقول غاز وبتروول في مواجهة بالغة الرمزية بين عالمين للإنسان على طرفي نقيض.

مثل هذه الأعمال الفنية بغزارتها وتنوعها لا يمكن أن تكون عمل عشرات وحتى مئات من الأفراد كما هو الحال في الفن الغربي أو الإسلامي. هي عمل جماعي ساهمت فيه آلاف العقول والأيدي جيلا بعد جيل، فيما يشبه ملحمة فنية انفق على إطلاقها ومتابعتها مجتمع بأسره كان الفن جزءا لا يتجزأ من حياته.

شعب من الفنانين؟ شعب من الشعراء؟ لم لا؟

لو صحّت الإضاءة التي تسلطها ثقافة الأبوريجينز على موضوعنا لوجب مراجعة مفاهيم خلناها من البديهيات وهي أبعد ما تكون عن ذلك.

فعلى ضوء ما تعلمنا من هؤلاء الأوائل، العالم الشعري صدى للعالم السحري، كما العالم السحري صدى لعالم الأحلام. أما الشاعر في المجتمعات التي لم تعد تسكن العالم السحري فهو الذي لم ينسى هذا العالم ويريد عبر النقر على أوتار حساسة مطمورة عميقا داخل الذات، إحياء ذكراه النائمة بعين واحدة داخلنا.

هو مستودع ذاكرة طفولة الإنسان وذاكرة طفولة الإنسانية. هو الطفل-الكهل الذي لم يقطع مع البراءة في تواصله مع الآخر، ومع الفطرة في تواصله مع الطبيعة... الشخص الذي بقي وفيا لتراث الأجداد مواصلا تصورا للعالم هجره أغلب الأحفاد... الشجرة الباقية من غابة احترقت، ولم

يبق منها إلا بعض الجزر المعزولة هنا وهناك تقاوم بعناد تغييرا جذريا في
مناخ الفكر والروح سميناه بلهجة التمجيد تجاوزا "الحضارة".

البردتان، أيهما أفضل؟

في ليلة القدر هذه، أي مسامرة تليق بالمقام غير إشكالية تعرّض لها الطيب صالح ومن قبله كم من شاعر وأديب: المقارنة بين بردة البوصيري ونهج البردة لشوقي وأيهما أعطت الرسول الأعظم حق قدره؟

أذكر أن بعضاً من أبيات شوقي تدافعت للذاكرة وأنا أقف لبضع ثواني على قبر سيّدنا وكانت أم كلثوم التي غنّت الكثير منها سهّلت عليّ حفظها:

وقيل كل نبي عند رتبته ويا محمد هذا العرش فاستلم
خططت للدين والدنيا علومهم يا قارئ اللوح بل يا لامس القلم
أحطت بينهما بالسر وانكشفت لك الخزائن من علم ومن حكم

كم من أبيات رائعة أخرى قالها شاعرنا في نفس المعنى:

فائقُ البُدورِ وفائقُ الأنبياءِ فكم بالخلقِ والخلقِ من حُسنٍ ومن عظم
بكلِّ قولٍ كريمٍ أنتَ قائلُهُ تحيي القلوبَ وتحيي مَيِّتَ الهَمِّ
البدرُ دونك في حُسنٍ وفي شرفٍ والبحرُ دونك في خيرٍ وفي كرمٍ
ثمَّ الجبالِ إذا طاولتها انخفصت والأنجمُ الزهرُ ما واسمئها تيم

لكن أين هذه الأبيات من قول البوصيري في البردة الأصلية التي أصبح تقليدها طوال تسعة قرون مطمح كل شاعر كبير:

وراودته الجبال الشّم من ذهبٍ عن نفسه فأراها أيما شمم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حدٌّ فيعرب عنه ناطقٌ بقم

لندكر بأن معارضة الشعراء لبعضهم فنّ يختص به الشعر العربي، وأن شوقي عارض ببعض قصائده كبار الشعراء مثل ابن زيدون وأبي نواس. لكنه تقدّم لمعارضة البوصيري على أطراف الأصابع (ومن ثمّ عنوان قصيدة "تهج البردة"، أي على طريق النص الأول) فشوقي واع بجديّة التحدي الذي طرحه على نفسه (وقبله كم من شاعر!) حيث يقول وكأنه يبرّر "جسارته":

المادحون وأرباب الهوى تبع	لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم
مديحه فيك حب خالص وهوى	وصادق الحب يُملي صادق الكلم
الله يشهد أنني لا أعارضه	من ذا يعارض صوب العارض العرم
وإنما أنا بعض الغابطين ومن	يغبط وليك لا تزنم ولا يلتم

جميل أن يتواضع شوقي - أو يتظاهر بالتواضع - لكن هذا لا يجعلني "أغفر" له ثلاث هنات.

عاب البعض على البوصيري غلوّه في مدح سيدنا، فما بالك بالإسفاف في شعر شوقي وجله مزايده على سلفه العبقري، ومن ذلك قوله:

سَنَاؤُهُ وَسَنَاؤُهُ الشَّمْسُ طَالَعَةٌ	فَالجَرْمُ فِي قَلْبِكَ وَالضَّوْءُ فِي عِلْمِ
قَدْ أَخْطَأَ النِّجْمَ مَا نَالَتْ نُجُوءُهُ	مِنْ سُوءِ بَاذِخٍ فِي مَظْهَرِ سَنَمِ

ماذا نترك لله بعد هذا القول، ونحن قوم نبهنا أبو بكر أن من يعبد محمدا فمحمّد قد مات ومن يعبد الله فإن الله حي لا يموت؟

ما أعيبه أيضا على شوقي إقحامه للمسيح في مفاضلة لا محلّ لها وليست ضرورية ومن ذلك قوله:

جَلَّ الْمَسِيحُ وَذَاقَ الصَّالِبَ شَانِيَهُ إِنَّ الْعِقَابَ بِقَدْرِ التَّنْبِ وَالْجُرْمِ

أو قوله:

أَشْيَاغَ عَيْسَى أَعْتَوَا كَلَّ قَاصِمَةٍ وَلَمْ تُعَدَّ سِوَى حَالَاتٍ مُنْقَصِمِ

أخيرا وليس آخرا تخلى أمير الشعراء عن تواضعه الأول، ليستعمل قصيدته في تمجيد نفسه:

يَا أَحْمَدَ الْخَيْرَ لِي جَاءَهُ بِتَسْمِيَّتِي وَكَيْفَ لَا يُتَسَامَى بِالرَّسُولِ سَمِي

وفي القصيدة التي مطلعها " نبي البرّ بيّنه سببلا وسننّ خلاله وهدى الشعابا" هو يخبرنا -هكذا "على الطاير"- أنه من الأشراف وليس مجرد سمي؛ أي من يحمل نفس الاسم:

أَبَا الزَّهْرَاءِ قَدْ جَاوَزْتُ قَدْرِي بِمَدْحِكَ بِيَدِ أَنْ لِي انْتِسَابَا

لا أقرأ هذا البيت إلا وأضحك، فشوقي من أصول تركية - ونعم الأصول - وبيته هذا يذكرني بحادثة طريفة بطلتها امرأة من "الضفة الأخرى" كانت تقول لي إن التونسيين ليسوا "أغاب" (أي عربا بلغة من نسيمهم "النمط"، أي المتغربون) وإنما تفخر كالكثيرين من محيطها بجذورها التركية.

ذات يوم فاجأتني بالقول إن لعائلتها "سجارة". لم أفهم ما السجارة هذه، إلى أن أدركت أن المرأة تعني برطانتها الشجرة وأنها تتحدث عن شجرة نسب عائلتها الذي ينتهي للرسول صلى الله عليه وسلم.

قلت لها مازحا: زدنتي علما زادك الله منه دوما. الآن، عرفت أن سيدنا تركي. هل تعتقدين أن أجداده من أضنا أو من إزمير؟ "فأعرضت مزورة وقالت لنا هجرا" (مع الاعتذار لأبي نواس)

على كل حال لا داعي لأن نقسو كثيرا على شاعرنا الكبير. إنما كلامنا من باب المزاح الذي لا خلفيات ولا رهانات ورائه.

أخذا بخاطر محبيه، لنختم مسامراتنا الرمضانية هذه الليلة المباركة بختام برده، ففيها كل الدعوات التي تحتاجها هذه الأمة الجريحة، الموجوعة، المهانة والمظلومة من نفسها قبل أن تكون مظلومة من الآخرين.

يا رَبِّ هَبَّتْ شُعُوبٌ مِنْ مَنِيِّتِهَا	وَاسْتَبَقَّتْ أُمَّمٌ مِنْ رَقَدَةِ الْعَدَمِ سَعْدٌ
سَعْدٌ وَحَسٌّ وَمُلْكٌ أَنْتَ مَا لَكُ	تَدِيلٌ مِنْ نَعَمٍ فِيهِ وَمِنْ نِقَمٍ
رَأَى قِضَاؤُكَ فِينَا رَأَى حِكْمَتِهِ	أَكْرَمَ بَوَجْهِكَ مِنْ قَاضٍ وَمُنْتَقِمٍ
قَالِطِفْ لِأَجْلِ رَسُولِ الْعَالَمِينَ بِنَا	وَلَا تُزِدْ قَوْمَهُ حَسْفًا وَلَا تُسْمِمِ
يَا رَبِّ أَحْسَنْتَ بَدَأَ الْمُسْلِمِينَ بِهِ	قَتَّمِ الْفَضْلَ وَأَمَّحَ حُسْنَ مُخْتَلِمِ.

آخر ملاحظة :

ضع البردتين في كفة، وفي أخرى البيت المنسوب للفاروق:

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبرر وأوفى نمة من محمد

ألا ترى أن الكفة تميل لصالح هذا البيت اليتيم، بما فيه من عفوية وبساطة وتجرّد وإيجاز؟ كم بديهي أن أجمل ما قيل - وما سيقال - من بديع الكلام، جاء من البوصيري من شوقي ومن غيرهما ، لا إضافة فيه لكائن لا يخفضه قدح ولا يرفعه مدح.

أي مستقبل للشعر؟

لنتتبع الشابي وهو يبني كلمة بعد كلمة، قصيدة النبي المجهول. هذا البيت نموذجاً :

في صباح الحَيَاة صَمَّخْتُ أَكُوَابِي وَأَتْرَعْتُهَا بِخَمْرَةِ نَفْسِي

كل هذه الكلمات موجودة بالتداول وفي القواميس. نادراً ما يبتدع الشاعر كلمة جديدة لأنه لا يخلق اللغة وإنما يشتق منها ما يحتاج، وكأن هذه الأخيرة حبلية بصور ومعان تنتظر فقط من يواصل توليدها لتجود بما تزخر به من ثراء.

في الخطاب العادي الذي يستعمله البشر لتبادل المعلومات الضرورية لقضاء شؤونهم، كل كلمة لها معنى محدد متعارف عليه، وتخرط بصفة طبيعية في تسلسل مقبول.

لن تفاجئ أحداً إن قلت: "عندي صباح الأربعاء موعد مع طبيب الأسنان"، ولن يُستغرب أن تقول: "الخمير محرم شرعاً ومضراً بالصحة". لكن أن تتحدث عن صباح الحياة، أو أن تضع الخمر بجوار النفس أمر يخرج الألفاظ عن روتين حياتها الطبيعي، ويفاجئ الذهن بصور ومعان جديدة عليه.

صقّف نفس الكلمات بكيفية عشوائية، كأن تقول:

"في صباح الأكواب ضمّخت نفسي بخمرة أترعتها". لن تحصل إلا على نوع من الهديان؛ وما الهديان إلا فقدان المعنى والترابط العادي بين الكلمات.

أعد الآن تصفيفها كما فعل الشابي لا كما تفعل الصدفة، ستحصل من جديد على انبثاق صور فنية عن روح سكرانة بالحياة والزمن مازال في أولى بداياته.

إذا كان الشعر تصفيف الكلمات بكيفية طريفة وغرفها من خزان اللغة، فما الذي يمنع الذكاء الاصطناعي من نظم أجود القصائد، وهو القادر على التمكن السريع من كل المفردات الموجودة في المعجم، وعلى اكتشاف أغرب وأطرف طرق التنظيم التي تعتصر من اللغة أقصى إمكاناتها الفنية؟

ألا تتغلب اليوم الحواسيب المتطورة على أمهر لاعبي الشطرنج، عبر ابتكار أبرع الاستراتيجيات انطلاقاً من المتوفر لها من معطيات المباراة ومن التعليمات المزروعة في برامجها؟

هل سنعرف يوماً يستحيل فيه التفريق بين شاعر اللحم والدم وشاعر الأسلاك والشرائح؟

ترى أنّ الأمر أعقد من مجرد تصفيف كلمات فلا بدّ من وجود مشاعر جياشة بالغة الرهافة والعمق تتعرف عليها ذات المتلقي، فتجاوب معها تلقائياً كما تتجاوب المرأة وهي تعكس صورة المتأمل فيها؟

طبعاً، طبعاً، لكن هذه المشاعر لا تتبلور إلا عبر الكلمات التي توفرها اللغة.

تقول نعم، لكن لا بدّ من مخيلة جامحة لتصنع منها الصور والمعاني التي ترتج لها ذات المتلقي. لكن ما المخيلة في آخر المطاف إلا إعادة تجميع المتوفر من الكلمات، وفق تشكيلة تفاجئ ذهن المتلقي كما فاجأت الذهن الذي تولدت فيه؟. شاهد لوحات بيكاسو وشاجال؛ لن تجد في رسومها الغريبة للإنسان إلا نفس أعضاء الجسد الذي نعرف، وُضعت في غير الأماكن المعهودة.

مهما جنّحت المخيلة، وتطرفت وبالغت فإنها لا تفعل دوماً إلا إعادة صياغة الموجود.

تتساءل إذاً: لكن الشعر بالضرورة هو مشاعر تتلاطم داخل أعماق الشاعر، والكلمات مجرد أدوات تعبير، فكيف يكون الشرار إن لم يوجد اللهب؟

بالطبع، لكن ما دليلك على أن الشاعر الذي رصف الكلمات وأعاد الكرة أكثر من مرة يشعر حقاً بما يدّعي؟ كيف تتأكد من الأمر وأنت لم تسكن وعيه، خاصة إذا مات منذ قرون؟ ماذا لو كان الشاب أو هولدرلين أو عمر الخيام قد نصب لنا شراكه بكلماته المعسولة، يوهمنا بمشاعر ليست إلا تصنعاً وتحذلقاً؟ أليس هذا سؤالاً مشروعاً، وقد لمسنا قدرة الكذب الهائلة عند المتنبي وشعراء الهجاء والمدح؟ من أين لنا بالردّ على هذا السؤال، ونحن لا نعرف ذوات الآخرين، وحتى بالكاد نعرف ذاتنا؟ كل ما يمكنك التأكد منه هو حالتك أنت، وقد أثارت فيك الكلمات ما أثارت من

أحاسيس ومشاعر وأفكار. ما الذي يمنح الذكاء الاصطناعي من تحريك نفس المشاعر والأمر مرتبط دوماً بقدرة الكلمات، لا أكثر؟

الاعتراض الأقوى هو أن الشاعر ينطلق في تصفيف الكلمات بدافع من ذات داهمتها الألام أو استتبتت بها صور جديدة. هو الذي يبادر من تلقاء نفسه للتعبير عما يتلاطم داخله من مشاعر وأفكار. صحيح، ومن ثم لا خوف من نضوب شعراء اللحم والدم. كذلك لا بدّ من إنسان، أنا أو أنت، لإعطاء الحاسوب أمراً بأن يكتب قصيدة قصيرة في ألم الفراق، أو في روعة الضباب حين يلفّ هضاب الخريف. حتى إن وجدت ذات يوم قصيدة في مدحك، ألقها حاسوبك المتطوّر مبادرة منه لكثرة حبه لك، فلن تحتاج لكثير من الوقت لتبتسم أمام خبث المبرمجين، وقد وضعوا في الآلة كل التعليمات لتتحرك في أوقات ولغايات محددة، مثلاً لرفع معنوياتك وهي تلاحظ من مراقبة بريدك الإلكتروني وحسابك في البنك أنك لست على ما يُرام.

قد لا ينظم لك برنامج أبو القاسم. 1. إلا شعراً من مستوى مضحك، لكن قد تذهل أمام قصائد أبي القاسم. 2. فما بالك بما سيبهرك به أبو القاسم. 7، وقد اكتسب المبرمجون خبرة واسعة تماشت مع ارتفاع قدرة الحواسيب.

تُرى ما الذي يمكن أن تجود به قريحة شوقي. 9، في معارضة البوصيري. 9؟ وما البردة التي ستهزّ أفئدة مسلمي القرن الثاني والعشرين؟

أضغاث أحلام؟ نعم مثل التي كانت تراود الأجداد عن الطيران في الهواء والغوص في أعماق البحر وطلوع مغامر بشري إلى القمر.

على فكرة من سمع بشخص اسمه دافيد كوب وهو أستاذ العلوم الموسيقية في جامعة كاليفورنيا بمدينة سانتا كروز. هذا الرجل صاحب خوارزمية (أي سلسلة التعليمات المدققة التي تعطى للحاسوب أو قل للتبسيط وصفة الصنع) لتأليف موسيقى تحاكي موسيقى أكبر عمالقة الموسيقى الكلاسيكية الغربية جان سبستيان باخ. استغرق تأليف الخوارزمية سبع سنوات من البحث والتجريب لكن النتيجة تأليف الحاسوب 5000 قطعة موسيقية في يوم واحد استحال على السامعين التفريق بينها وبين المؤلفات الحقيقية. أعاد الرجل نفس العملية لكن بخوارزمية لكتابة أشعار الهايكو ومزج قصائد حاسوبه بقصائد شعراء اللحم والدم وتحدي عشاق هذا النوع من الشعر أن يفرقوا بينها.³³

قلّ من ينتبه إلى دور الثورة المعلوماتية والتطور المذهل للذكاء الاصطناعي في خلق واقع جديد.

داخل هذا الواقع الجديد توقعوا كل شيء... حواسيب تقول من الشعر أجوده وعوالم سحرية أروع من التي وصفها الشابي ومبرمجون أوبوريغانز يعيدون خلق أساطير أجدادهم ينخرطون فيها بأجسادهم وأرواحهم فاعلين يشاركون في صنع حلمهم اليقظان.

الثورة التكنولوجية العارمة في بدايتها، وقد يأتي يوم لا ترى أحدا جالسا أمام تلفزيون غبي وإنما مبحرا في عالمه السحري يعيش فيه من المغامرات ما لم يحلم به أكبر الحالمين.

33 - Yuval Noah Harari: Homo Deus-A brief history of tomorrow-.P 377-
Vintage-London 2016

استعدوا لأكبر تحوّل في تاريخ تصوراتنا وطريقة تفاعلنا مع العالم، وقد
عضّ الزمان نيله لتلتقي أقدام رؤانا بأحدثها.

يا ليلة العيد

عيدٌ بأيّة حالٍ عُدتَ يا عيدُ بما مضى أم بأمر فيك تجديد

يتردد سؤال المنتبهي هذا في أذهاننا كل عيد، ولا أحد - حسب علمي -
كلف نفسه عناء الردّ عليه، رغم سهولته، على الأقلّ ظاهرياً.

فيما يخصني، الردّ هو تخلص يوقق بين كل الآراء: كلّ عيد يعود بما
مضى... ويعود بأمر فيه تجديد.

هو يعود بما مضى لأنه لحظة من سيل زمان دار على أعقابهِ، ليحملنا لا
للمستقبل كما هو سيره الطبيعي وإنما لماض ليس كأَي ماضٍ.

انظر إلى أعيادنا الدينية والوطنية وحتى الشخصية مثل عيد ميلاد حبيب.

هي دوماً مرتبطة بحدث جلل، لعب دوراً محورياً في حياتنا الشخصية أو
الاجتماعية.

مهمة العيد إذاً تكمن في تذكيرنا بما لا يجب أن يُنسى أبداً، والرجوع إليه
باستمرار.

لماذا هذا الاستحضار الدوري؟ كي لا ننسى أبداً أن تاريخنا الجماعي أو
الشخصي قصة مسترسلة بدأت قبلنا وستواصل بعدنا.

نحن لا نعرف هذه القصة التي أقمنا فيها والتي علينا مواصلتها، إن لم
نعرف ونتذكر دورياً المحطات الكبرى أو تقاطعات الطريق الأساسية،
والأحداث التي تحكمت في صيرورتها ودفعتها في هذا الاتجاه أو ذاك.

لذلك علينا أن نستحضرها دوريا في مناسبات نسميها الأعياد، لتتعلم منذ نعومة أظافرنا من أين جئنا حتى ندرك إلى أين نتوجّه.

عبر الاحتفالات الدينية نحن نتواصل مع ملحمتنا المؤسسة.

عبر الاحتفالات الوطنية نحن نتواصل مع الشهداء والأحداث التي صنعت هذا الوطن.

عبر الطقوس الاجتماعية نحن نتواصل مع هوية الشعب والأمة نؤكد التزامنا بما توافق عليه الآباء والأجداد، الأمهات والجدّات، من عادات وتقاليد.

ألا يأتي العيد للجميع وفي الوقت ذاته؟ أليس تشاركنا نفس الفرحة ونفس العادات على قدم المساواة هو الدليل على أن ما يفرق بيننا هشّ، مصطنع وغير واجب أو شرعي؟

بقدر ما نحن بحاجة للتواصل، نحن بحاجة للتجدّد، والعيد لحظة من أهمّ لحظاته.

في يوم العيد نفض الغبار عن علاقتنا بالأقربين، نجدّد الحب عبر تجديد صلات الرحم.

ومن خلال العيد نجدد الطاقة التي بداخلنا، لمواجهة المستقبل المحمّل بكل أصناف الوعد والوعيد.

فترة العيد ليست لاستحضار الماضي والتأهب للمستقبل فحسب، إنما هي احتفاء باللحظة الآنية؛ أي بالحاضر، وقد عزلناه بقرار جماعي عن آلام

الماضي ومخاوف المستقبل ليكون زمان الفرح والرقص ولو على حافة الهاوية.

مثل هذا القرار لا يكون كافيا دوما للتخلص من ثقل واقع أقوى من إرادتنا. ترسم فدوى طوقان صورة اليوم الذي ننتظره كلنا بفارغ الصبر، وهو يطلّ على الملايين من الرجال والنساء. البارحة في المخيمات الفلسطينية، واليوم في مخيمات العراق وسوريا واليمن والصومال وجنوب السودان وكم من مكان آخر:

"أختاه، هذا العيد رفّ سنه في روح الوجود
وأشاع في قلب الحياة بشائشة الفجر السعيد
وأراك ما بين الخيام قبعت تمثالا شقيا
متهاكئا، يطوي وراء جموده ألمًا عتيا
يرنو إلى اللاشيء، منسرحا مع الأفق البعيد
أختاه، هذا العيد عيد المترفين الهانئين
عيد الألى بقصورهم وبروجهم متعممين
عيد الألى لا العار حرّكهم، ولا نلّ المصير
فكانهم جثث هناك بلا حياة أو شعور
أختاه، لا تبكي، فهذا العيد عيد الميّنين"

نعم، لا شيء أصعب تحملا على الإنسان من يوم يفرح فيه الآخرون وحدهم. وفي هذا يقول عمر أبو ريشة:

"يا عيدُ ما أفتُرُّ تُعُرُّ المجدُّ يا عيد
فكيف تلقاك بالبنشر الزغاريذ؟
يا عيدُ كم في روابي القدس من كبدٍ

لها على الرَّفَرَفِ العُطُويِّ تُعييدُ؟"

هل يستطيع الإنسان -والحال على ما هو عليه- إلا أن يكون سعيدا بالعيد مع كل الذين أنعم الله عليهم بنعمة السلام، وحزينا مع كل الذين لم يحمل لهم هذا اليوم إلا ويلات الحروب؟

مفارقة لا أعرف التخلّص منها إلا بترك نصف القلب يفرح مع الفرحين، متمنيا لهم عيدا سعيدا وأن يتذوقوا كل لحظة فيه... وبترك نصف القلب الآخر يشارك الموجوعين أوجاعهم، متضرعا لله أن ينهي محنتهم ليشاركونا العيد المقبل فرحة كلنا بها جديرون.

فهرس المسامرات

- توطئة..... 9
- تصفية الحسابات القديمة مع الشنفرى..... 14
- الخنساء وتعليمات صنع الذات النبيلة..... 21
- عندما يسخر أبو دلامة من البطولات الكاذبة..... 26
- رأى شكسبير فى "المجد"..... 32
- الشعر صرخة الذات الموجوعة..... 37
- من تورّم الذات إلى جلدها فى الشعر العربى..... 44
- المتنبى وشيم النفوس..... 48
- أبو نواس فى خدمة الشعوبية..... 53
- سنغور فى مناهضة العنصرية..... 56
- إيليا أبو ماضى: ظلمه للسياسة، إنصافه للأيدىولوجيا..... 62
- بخصوص أشهر بيت فى الشعر العربى المعاصر..... 69
- الدنيا بين الفصحى والعامية..... 75
- المعربى وتصوره للحياة..... 79
- هذه الليلة التى اكتمل فيها البدر..... 83
- ابن عربى الشاعر الذى بنى للحبّ محرابا..... 89
- طاغور أكبر تلامذة ابن عربى..... 93
- لمن نقرأ عندما نقرأ لعمر الخيام؟..... 99
- حافظ، الأثم الذاهب إلى الجنة..... 105

- 110.....لَمَّا رَمَى الْهَيْكُو جَسْرًا بَيْنَ تُونِسَ وَالْيَابَانِ.....
- 118.....عَمَالِقَةُ الْهَيْكُو الثَّلَاثَةُ.....
- 122.....هَلْ قَرَأْتَ لِهَوْلْدِرْلَيْنَ؟.....
- 131.....وَيَتِمَّانِ الشَّاعِرَ الَّذِي وَسَّعَ قَلْبُهُ كُلَّ الْعَالَمِ.....
- 136.....بُوشَكِينِ وَإِشْكَالِيَّةِ النَّبُوءَةِ عِنْدَ الشُّعْرَاءِ.....
- 143.....لَا وَتَسُو وَلِقَاءَ الشُّعْرِ وَالْحِكْمَةِ فِي أَعْلَى الْقَمَمِ.....
- 156.....كَلِمَاتِ الشَّاعِرِ ... شَاعِرِ الْكَلِمَاتِ.....
- 165.....فِي آخِرِ الْمَطَافِ، مَا الشُّعْرُ؟.....
- 177.....الْبَرْدَتَانِ، أَيُهُمَا أَفْضَلُ؟.....
- 182.....أَيُّ مَسْتَقْبَلٍ لِلشُّعْرِ؟.....
- 188.....يَا لَيْلَةَ الْعِيدِ.....



د. منصف المرزوقي

- أستاذ في الطب الوقائي في جامعتي سوسة وباريس 13 (1981-2004)
- ناشط حقوقي محليا وعربيا ودوليا منذ ثمانينات القرن الماضي
- رئيس الجمهورية التونسية (2011-2014)
- كاتب، اختارته المجلة الأميركية "فورين بوليسي" من بين أفضل مائة مفكر عالمي لسنة 2012 كما اختارته مجلة "التايم" الأميركية من بين أكثر مائة شخصية مؤثرة في العالم لسنة 2013.

الكتاب

جولة مثيرة في الحديقة الفكرية للمرزوقي يقدم فيها لقراءه أحب الشعراء العرب والعالميين إلى نفسه ومن خلالها يتعرفون على بعض خبايا الكاتب وتأثير شعراء عظام كانوا مصدر الكثير من أفكاره ومواقفه

